7me Année No. 310

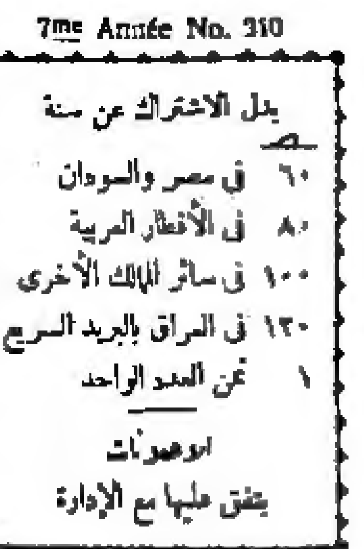
Lundi - 12 - 6 - 1939

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

الإدارة
دار الرسالة بشارع البدولى رقم ٣٤
عابدين — القاهرة
تليفون رقم ٤٢٣٩٠

الرسالة
مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH
Revue Hebdomadaire Littéraire
Scientifique et Artistique



بدل الاشتراك عن سنة

٦٠	فى مصر والسودان
٨٠	فى الأقطار العربية
١٠٠	فى سائر الممالك الأخرى
١٢٠	فى العراق بالبريد السريع
١	ثمن العدد الواحد

الإعلانات
يتفق عليها مع الإدارة

العـــدد ٣١٠ « القاهرة فى يوم الاثنين ٢٤ ربيع الآخر سنة ١٣٥٨ — الموافق ١٢ يونيه سنة ١٩٣٩ » السنة السابعة

الفهـــرس

بمناسبة تبرع اللورد نفيلد نسأل :

هل لأغنيائنا وطن ؟!

من أنباء البرق الأخيرة أن اللورد نفيلد صاحبَ مصانع سيارات (موريس) الإنجليزية قد تبرع للدفاع الوطنى البريطانى بمليون ونصف من الجنيهات، ووضع مصانعه الكبرى تحت تصرف وزارة الدفاع، فبلغت بذلك جملة هباته للوطن فى مدى عشر سنوات خمسة عشر مليوناً ونصفاً من الجنيهات على رواية الصنداى إكسبرس ! فإذا قرأت هذا وتذكرت ما تبرع به زغاروف وأفيروف وكوتسيكا وأنطوبيادس للجيش اليونانى وهم من رجال الأموال والأعمال فى مصر، لا يسعك إلا أن تسأل كما أسأل : هل لأغنيائنا وطن ؟

الواقع الذى لا مراء فيه أنْ ليس لأغنيائنا وطن. إنما لهم قصور لإتلاف النعمة، ومزارع لمصر الفلاح، وبِرَك لصيد البط، وميادين لسباق الخيل، وأندية لقتل الوقت، ومنازه لإظهار الأُبَّهة. وما عدا ذلك من أرض الوطن ومعنى الوطن فهم لا يعرفونه ولا يفقهونه !

هل سمعت أن غنياً من الأغنياء أو أميراً من الأمراء قال إن له وطناً فتبرع له بطائرة فى الجيش، أو بجائزة فى المعارف، أو بكرسى فى الجامعة، أو بمستشفى فى الصحة، أو بملجأ فى الأوقاف ؟

لا تقل فى تعليل هذه الفردية الشحيحة : إن أغنياءنا جهلاء العقل ، وأمراءنا غرباء العاطفة ؛ فإن الوطنية عصبية طبيعية تقتضيها سنة الحياة ، فتكون فى رجل الفطرة تعصباً للأسرة ، وفى رجل البداوة تعصباً للقبيلة ، وفى رجل الحضارة تعصباً للأمة ، وفى رجل الإنسانية تعصباً للعالم

ولئن سألتنى عن تعليل ضعف الوطنية فى هؤلاء الناس لأقولن لك إنى عنه عاجز ؛ فإنهم لا يزالون يشعرون بها شعور الفطرة الضيقة المحدودة . ومن الصعب على العقل أن يتصور أن أصحاب السمو وأصحاب المجد وأصحاب السعادة لا يجدون فى أنفسهم من الحب لمصر الحبيبة الخصيبة ، ما يجده الإنسان الفطرى للغابة السلبية والبادية الجدبية !

* * *

يكاد النيل يعتقد أن أكثر الأجانب الذين يعيشون فيه ، هم خير له من أكثر الأغنياء الذين يعيشون عليه ؛ لأن أولئك يعاملونه معاملة الراعى الذى يحلب ويرعى ، وهؤلاء يعاملونه معاملة العَلَق الذى يمتص ويهمل . فأينما رأى التجارة والمهارة والإنتاج رأى ضيوفه ، وحيثما رأى الإسراف والإتلاف والتبطل رأى أهله !

ليتنى أدرى ماذا يقول الغنى الأصيل إذا فاخره الأجنبى الدخيل أمام قدس الوطن ؟ أيقول له : هذه رءوس أموال تنشئ الشركات وتقيم المصانع وتنمى الثروة ؟ أم يقول له : هذه (مشروعات) أعمال تُقر الأمن وتحيى البلاد وتقتل البطالة ؟ أم يقول له : هذه ثمار إفضالى تعزز الدفاع وتشجع الإبداع وتنشر الثقافة ؟ الله أعلم يومئذ أيهما يقول ذلك وغير ذلك ؛ وأيهما يقف ناكس الرأس خاشع الطرف عىّ اللسان ، لا يجرى على باله إلا أنماط الثياب وسلائل الكلاب وفصائل الخيل وطُرُز السيارات وأندية القمار وحسان هوليود !

يظهر أن التضحية والتضحية والخدمة العامة إنما تكون أثراً لقوة الروح وصحة الخلق ، فإن أول من تطوع للجهاد شباب الأمة ، وأول من تبرع للدفاع رجال الدين . فالحيلة فى أغنيائنا إذن هى حيلة الله . هو وحده الذى يملك أن يحيل فى النفوس عبادة المال عبادةً للوطن ، ويجعل فى القلوب محبة النفس محبةً للناس

* * *

يا أغنياءنا ، إنا نريد أن نحببكم فتساعدونا على خلق هذا الحب . إن ديننا ينهانا أن ننفس عليكم نعمة الله ، وإن وطننا يمنعنا أن نضن عليكم بأخوة الوطن ؛ ولكن العقيدة والوطنية اللتين تحببانكم إلينا ، هما كذلك اللتان تغضباننا عليكم ! لأن الأمة تريد أن تقوى وفى نفوسكم قوتها ، وتبغى أن تعتز وفى رءوسكم عزتها ، وتحاول أن تدافع وفى أيديكم ثروتها ، فحرمتموها كل ذلك ووضعتموه فى غير موضعه ، وأنفقتموه فى غير سبيله ؛ ثم مكنتم للجهل والفقر والمرض أن تدهمها من كل جانب ، فقعد القوى لجهله عن السعى ، وفتر العالم لفقره عن البحث ، وعجز الضعيف لمرضه عن الإنتاج

* * *

يا أغنياءنا — والناس أجمعون يعرفون من أعنى — لقد جربتم بذل المال فى اللهو ، وقتل العمر فى العبث ، وفقد الصحة فى المجون ، فهل كسبتم من وراء ذلك مجداً أو وجدتم فى عواقبه سعادة ؟ جربوا ولو مرةً واحدة على سبيل التسلية أن تمسحوا دمعة على خد حزين ، أو تنفّسوا كربة عن قلب يائس ، أو تسهلوا طلب العلم لفقير ، أو تمهدوا سبيل العمل لمتعطل ، أو تشاركوا أبناء الشعب فى منفعة عامة ؛ ثم انظروا بعد ذلك كيف يشيع فى صدوركم الرضاء ، ويرتفع بقلوبكم الإخاء ، وتنعم نفوسكم فى الحياتين بين عاجل المجد وآجل الخلود . ثم وازنوا بين متعة الجسم ولذة الروح ، تجدوا أن الأولى تنقضى بالملل والمطل والجريمة ، والأخرى تدوم بدوام الروح فى الأرض وتخلد بخلودها فى السماء

* * *

يا أغنياءنا — والله هو الغنى الحميد — لقد عم الصوت وحق القلم وأنتم فى نشوة البطر وغفوة النعيم لا تسمعون ولا تقرأون ! فهل تظنون أننا بما نقول ونكتب نريد أن نخرجكم من متاعكم ، أو نعزلكم من طباعكم ؟ لا يا سادتنا ! إن ذلك عمل الله وحده ؛ أما عملنا فأن نذكركم كلما نسيتم أن لكم مواهب تهملونها وللوطن فى استغلالها نصيب ، وأن لديكم أموالاً تبذرونها ولله فى ريعها حق ؛ وأن ننبهكم كلما غفلتم إلى أن هزل الحياة لا ينفع فى جد الموت ، وأن ملك الدنيا لا يغنى عن ملك الآخرة !

أحمد حسن الزيات

بقية من حديث الأربعاء (*)

النبوة ـ الوحى ـ المعجزة

للأستاذ عبد المنعم خلاف

كتب إلىّ كاتب فاضل من بيروت ، لم يتكرم بذكر اسمه كاملاً ، يستعديني على مقال لدكتور فاضل نشر بمجلة « الأمالى » عنوانه « المعجزة » فسرها فيه تفسير الرافضين الاعتراف بالنبوة بمعناها عند المؤمنين .

وأنا لا أحب الجدل العلنى فى الصحف ، ولا أرتاح إلى نتائجه على النفس والحق وخصوصاً فى المسائل الشائكة التى يجب أن تمحص فى خفاء وهدوء يوحيان عدم التعصب للرأى ، وحب الغلبة أمام الجمهور . ولذلك لم أرد أن أناقش ذلك المقال مناقشة حرفية لأن الألفاظ عالم فضفاض غير مضبوط الحدود ، وإنما أردت أن ألقى خواطرى حول هذا الموضوع الخطير ، وفيها يستبين رأيى وردى الضمنى على ما ورد بالمقال . وأرجو أن يكون فيها كتبت إرضاء « العقل المؤمن والقلب العاقل » الذى كاتبنى من بيروت .

* * *

هل يقنع ناظر باحث فى حياة الإنسان العقلية والروحية الأولى أنه يجوز أن يترك الله الإنسان من غير أن يتصل به ويرشده ، ويبين له بعض ما خفى عليه وخصوصاً إذا كان هذا الخفاء حول أهم ناحية فى الحياة العقلية والروحية ؟

هل يجوز أن يستمر الكون كله صامتاً أمام الإنسان لا يكلمه فيه أحد بكلمة غير إنسانية ؟

أيمر كل الناس هكذا على الدنيا سائرين إلى القبور وأبواب الغاية المجهولة من غير أن يسمعوا حديثاً إلهياً عما وراء الحياة ؟

هل يجوز عقلياً ووجدانياً أن يحتجب ربنا عنا من أول رجل فينا إلى آخر رجل هذا الاحتجاب القاتل ؟!

أيمكن أن يكون هذا من إله ترى رحمته وسعت كل شىء ؟

أيكون أوجدنا لنثبته بمنطق عقولنا فيفتننا هو بشوق قلوبنا إليه شوقاً لا أمل وراءه ؟

أكان من الممكن أن يستقل عقل الإنسان فى طفولته المنحطة بالاهتداء إلى الحق الفاصل فى قضايا الوجود وما بعد الطبيعة ؟

ماذا يغنى العقل وحده وماذا يرشد إزاء هذه الألغاز والمعميات التى رآها الإنسان فى دور طفولته ؟ إنه لا يزال غير مغن ولا نافع عند كثير من الناس حتى فى زمن العلم والسيطرة على الطبيعة فكيف يغنى فى زمن الكهوف والأحراج والغابات ؟

كيف يغنى فى زمن الجهل المطلق بالنفس وبالطبيعة وفى زمن عبادة الأحجار والأبقار والثعابين والجعلان والخنفساء ؟

وماذا كان العقل فى تلك الأزمان ؟ إنه لم يكن سوى انطباعات بسيطة من تجارب الحياة المحدودة التى كان يحياها الإنسان ، فكيف يقدر أن يستقل بأمر البت فى أمر الإلهية وصفاتها وكمالاتها ؟

إن الطفل لا يدرك فى أول أمره من أمه غير ثديها وهى تلقمه إياه ... ثم ينكشف له جسمها ومعناها عضواً عضواً وشأناً شأناً حتى يدركها كاملة ... ولو تركته منذ ولادته لمات جوعاً ولذهب وجوده ولم يدركها . وكذلك الإلهية مع الإنسان ، ولله المثل الأعلى

هل يمكن أن ينشأ طفل كامل من غير أم أو من فى معناها تقول له قولها المعروف وترعاه حتى يصل إلى سن الرشد فيستطيع أن يستقل بأمره بنفسه ؟

أنا لا أستطيع أن أتصور الإنسان الذى هو أكرم ما فى الأرض يعيش هكذا وحده وخصوصاً فى عصور طفولته من غير أن يقول له قائل من وراء الغيب كلمة التوجيه والتسديد

ولو كنا نرى نوعاً آخر محترماً يعمر الأرض ويتولى الخلافة عليها ويسخرها لقلنا : لعل هذا هو المقصود بالخلق ونحن نعيش على الهامش ... ولكننا لم نر سوانا خليقة يصح أن يكون مقصوداً بالخلق ... فكيف يقصد وجودنا الخالق ثم يتركنا من البدء للنهاية من غير كلمة !

كلا ! لن يثبت العقل على رأى ثابت فى « الله » إلا إذا سمع صوتاً منه ... وإلا فمن الحكم بين العقول المختلفة ؟

كلا ! لن يؤمن الإنسان بأنه شىء ذو خطر فى الوجود إلا إذا قيل له ذلك من غير عالمه العقلى المستقل ...

كلا ! لن يصبر الإنسان على احتمال الحياة بلذاتها وآلامها من غير أن يسمع من يقول له : إحىّ ، واعمل ، واصبر ...

الإنسان ! ما الإنسان ؟ إنه كل شىء فى الأرض أمام نفسه

(*) أنظر الأعداد ٢٧٩ ، ٢٨٠ ، ٢٨٢ ، ٢٨٥ ، ٢٨٦ من الرسالة

وأمام الوجود الظاهر فكيف يهمل ويترك سدى من غير نداء حق بعيد ؟

إن الإنسان نفسه كبير الرحمة في بعض أفراده الذين لا يستطيعون سماع استغاثة حي ذي كبد رطبة دون أن يكون رحمة له ، ويقولوا له : لبيك لبيك ... فما بال الرحمن الذي ثبتت رحمته ثبوتاً محسوساً تنظر إليه عقول عباده وقلوب الباكين الدائمي البكاء له السائرين في ظلام الحياة وآلامها ، اليقظين لكل فكر وحس وحركة في الوجود ، الحاملين آلامهم على ظهورهم وأرواحهم على كفوفهم ، الحائرين بين مذاهب الأفكار واتجاهات الطباع واختلافات الميول يقولون له : « رب الحياة ! قل لنا كلمة واحدة : ما هو الحق ؟ قل لنا بصوت منك أو بلمحة أو بحجة قاطعة حتى نجزم به جزم الحس مع جزم العقل ...

إن جزم العقل وحده في هذه المسألة الكبرى لا يدخل الطمأنينة الكاملة التي لا بد منها في حياة الإيمان يا مولانا ! فاكشف لنا الحجاب ، وامتك الأستار ، وأرنا ما وراء هذه الكثافات والأجرام والأجسام والأحجام ... » أقول ما بال الرحمن لا يسمع دعاء مثل الإنسانية الحائرة المقتولة بالشوق والشك المصروفة بالإفك ، فيقول لها بيّن قوة وأخرى كلمة فاصلة يشير لها بها إلى الطريق ما دامت هي التطبيع المقصود ، وما دام الاهتداء إلى الله هو المعنى الذي يصح أن يكون غاية الله من خلق الإنسان ؟

هكذا رقف قلبُ كل نبي نشأ في حيرة من ضلال قومه قبل أن تتصل به شرارة الوحي ، لا يرى نوراً ولا يسمع شيئاً يقول له : « من هنا الطريق ... »

هكذا وقف كل نبي في الظلمات وبكى ... بكى لكل شيء ... بكى للسماء والأرض والحجر والنجم والحي والميت وكل شيء ... وكل شيء ...

فإذا كان منطق الإنسان الكامل ورحمته يحتمان أن مثل هذا الباحث الحائر الباكي يجب أن يرحم ويخاطب ويغاث من لهفته وخصوصاً إذا احتاجت الظروف لحركة تطهير الأرض من ضلال وفساد ، فأظن ظناً يقرب جداً من العلم أن هذا المنطق وتلك الرحمة يقولان : « لا بد لله أن يتكلم ! » أجل يحكمان على رب الوجود أن يكلم ذلك الرجل الحائر الباكي من عدم الاهتداء إلى حقيقة نفسه وحقيقة الوجود ... ولن يحمل إنسان عبء النبوة والرسالة الفادح إلا إذا سمع هذه الكلمة ... ولن يتحدث باسم رب الوجود ويقول : « أوحيَ إليّ » إلا إذا سمع حديث الله له ... وإلا كان أكبر مجرم ظالم كاذب والكاذب لا يستطيع أن يبني بيتاً كما يقول « كارليل » فلا يستطيع أن يبني أمة ... « ومَنْ أظلمُ ممن افترى على الله كذباً ، أو قال : أوحى إليّ ولم يوحَ إليه شيء ... »

* * *

تلك هي النبوة أوقن بها كما أوقن بسنن الطبيعة المطردة وأنتزع حججها من صميم النفس الإنسانية منطقها ووجدانها وأحاسيسها . فكما أومن بأن الشمس يجب أن تظهر للنبات والحيوان لكي تعطيهما وجودهما الجسماني أومن بأن الله أظهر للإنسان جانباً من نوره حتى يأخذ وجوده الروحي ، وذلك كان في أول النشأة ودور الطفولة البشرية

إننا الآن نرضى بسمت الطبيعة المطلق اتكالاً على أن الله كلم بعض أفراد النوع في الزمان القديم . وأنا شخصياً أظن أنني ما كنت لأومن بفكرة ثابتة عن الله لو لم أوقن بأن الله كلم محمداً ومن حكى عنهم محمد من الأنبياء ... وكأني أحس أن الله كلني شخصياً حين كلم بعض أفراد نوعي ...

أجل ! كيف أثبت على الإيمان به دائماً ما دام هو لم يأبه لي ولا لنوعي ؟ أمن المعقول أن ينظر الإنسان إلى الله دائماً ولا يبالي هو به ؟

إن الله رحمة ... إن الله محبة ... إن الله كرم ... إن الله جمال ... كما تثبت ذلك صناعته في الخليقة فلا يجوز أن يكون قاسياً متكبراً على الإنسان خليفة الأرض إلى هذا الحد !

إننا الآن في زمن رشد عقلي يلوح لنا أننا نستطيع أن نستقل بعقولنا في الاهتداء إلى الله وإلى الخير . ولكن يجب أن نتذكر حالة النشأة والطفولة التي كنا عليها ... حين كنا نعيش بالأوهام والأحلام ونرى الكون أمامنا كتلة مبهمة ومجموعة ألغاز ومعميات وأحاج ... حين كنا نعبد الحجر والبقر والجعلان والثعبان — حين كان العالم مملوءاً أمامنا بالأشباح التي تملأ الهواء والنار والسحاب والبحار . فهل كانت غاية خلق الإنسان متحققة في تلك الدهور والأحقاب بالعقل الإنساني على بساطته ؟ وما دامت غاية خلق الإنسان كما يحتمها العقل هي معرفة الخالق وعبادته فلا بد أن تتحقق دائماً وقصور عقل الإنسان في الماضي ما كان يسمح بتحققها فلا بد أن يتولى الله إرشاده عن طريق الاتصال ببعض أفراده

إن الحركة العقلية المدنية التي كانت في بلاد الإغريق لم تنقذهم من الوثنية المنحطة . فالعقل وحده لا يؤمن بما يصل إليه ويصنعه هو إلى درجة الطمأنينة التي لا بد منها في منطقة الإيمان، والطبيعة الآرية صارت تبحث عن الله بالعقل المادي وحده فما اهتدت إليه إلا أفراداً قلائل . ومن قرأ صور الإله في أفكار كثير من فلاسفة اليونان من العدد إلى الماء إلى العقول السبعة إلى النار إلى آخر الفروض يرى أن العقل وحده حتى في بلاد اليونان لم يقدم الصورة الكاملة للإله كما قدمتها الروح السامية فقد بحثت عن الله في نفسها ووقفت تبكي له بقلوب أنبيائها وسهرتها الآلام وأمضاها الإخلاص له إخلاص الطفل حين يبحث عن أمه ويبكي ، فظهر لها فأيقنت بالحق والخير

وقد نجحت الروح السامية في إنقاذ البشرية من الوثنية وفي إعلاء شأن الإنسان وفي تعميم صورة الكمال الإلهي وفي سيادة الأرض . فلا يمكن بعد ذلك كله أن نقول إن تلك السيادة السامية المبنية على النبوة كانت عفواً وصدفة، ولا يمكن أن تكون حركة العقليين موازية لتلك الحركة الروحية ، وخصوصاً أيام كانت حركة العقل شللية لا تستطيع أن تقيم قوانين وأخلاقاً . فلا بد أن يكون وراء الروح السامية سند من عالم الغيب

لا يمكن أن يستأنف الإنسان عبادة الأحجار والأشجار وغيرها بعد أن وصل إلى التسلط على كثير من قوى الطبيعة وبعد أن زال خوفه من قواها أيام كان يجهل أسرار تركيبها

ولذلك ختم الله الرسالة بمحمد وأعطى الإنسان الطبيعة يسخرها ويتصرف فيها بالتدريج كما يعطي الأب ابنه ماله بعد الرشد يتصرف فيه بعلمه وسلطته

تماماً هو قانون الأبوة مع البنوة فهو اطراد في سنن الكون، والطبيعة كلها متشابهة . النشأة العقلية العامة في الإنسان كالنشأة الجسمانية فيه

لقد استخلص الله خلاصة الحق من تجارب الحياة الإنسانية في جميع الأمم وأسلمها للإنسان ووصاه وصيته الأخيرة وقال له : بلغت الرشد فأمامك الطبيعة ، وإلى اللقاء في الدار الثانية التي يحكم بها عقلك وعلمك، فاستعد لتقدم إلى الحساب عما تفعله في النفس والمادة وقواها

أليس هذا هو قانون الطبيعة مع أفراد الحيوان والإنسان ومع أسرها؟ بلى، وإنه هو نفسه بشكل أوسع بين الله والمجموع الإنساني.

قد يقول قائل: إن الوثنية لا تزال دين عدد هائل جداً من الناس؛ ولا يزال سكان أفريقية الوسطى وجزر المحيط والصين والهند واليابان يدينون بالقوى السحرية وعبادة الحيوان. فأين رشد الإنسان المزعوم؟

ولكن مع تسليمنا بذلك نقول إن التبعة ملقاة على عاتق الأمم المتعبدة بالروح السامية ، وإنه لتقصير فظيع منها أن تترك بعض أفراد الأسرة الإنسانية هكذا ضائعين من الحياة . ولو كان الاستعمار يحمل غاية روحية سامية لجعل همه الأول هدم الوثنية وتعميم فكرة الوحدة الإلهية . وقد وكل الله الشعب الأصغر القاصر إلى الشعب الأكبر الراشد ، كما يحدث من توكيل الأب للابن البكر في الأسرة الواحدة ... فإذا لم يراع الأكبر حسن الرعاية والإرشاد كان اللوم كله منصبًّا عليه . وستعلم الشعوب المتحكمة العاشقة للمادة وحدها كم ستكون تبعتها ثقيلة باهظة ، وجنايتها كبيرة غليظة، بتركها نفوس الزنوج وسكان الجزر النائية في المحيطات وكل الأمم الوثنية من غير عمل لها بالقوة على ترك عبادة الأوثان وعلى سمو الحياة الروحية

لقد صارت الأرض كقطر واحد بفضل الكشوف الجغرافية وأدوات الاتصال العلمية وسرعة الانتقال ، فكان من الواجب أن يتلاقى البشر على معان قريبة في الدين ، ولكن المادية الحالية هي الحائل وهي الشاغل ... وعلى أية حال لن تعمر الوثنية طويلاً بعد الآن

كانت الأمة من الأمم السابقة تحتاج إلى رسول معين يرشدها في حياتها الروحية نظراً لقصور العام ، ولكن ميراث الرسل المتروك والملخص في رسالة محمد يستطيع أن يخرج رسلاً عديدين ينقذون الخاضعين للسحر الأسود والوثنية الصفراء وغيرها ... ولعلها رسالة مدخرة لأبناء محمد حين يتم نضجهم وكمالهم بعد يقظتهم الثانية هذه . فإنه ليس هناك كتاب دين حارب الوثنية وأبغضها وحطمها وناقشها من جميع وجوهها كما فعل القرآن . وليس هناك أمة أفهمها كتابها أنها منتدبة لحماية عقائد البشر من الوثنية وغوائل الروح كالأمة الإسلامية « وكذلك جعلناكم أمة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً »

ويمكن لأي فرد الآن أن يعلم من حقائق الدين وحقائق الطبيعة ما كان يختص بعلمه الكهنة والأوصياء في الزمان القديم ، ويخيل إلي أن جهود النبوات كلها كان موجهاً إلى تفهيم الإنسان

ثمة الطبيعة وإلى شغل عقله بالبحث فيها حتى يهتدى إلى مفاتيح تسخيرها ويبرأ من عبادة ظواهرها وقواها ويعبد بارئها فقط . وقد نجحت النبوات نجاحاً باهراً فى ذلك وأنقذت الإنسان الذى يسكن الجزء الأهم فى الأرض وجعلته هو صاحب السيادة والسيطرة فيها ، وجعلت الأمم الوثنية خاضعة له ، أو ناظرة إليه وتابعة لخطواته . فلم يعد هناك حاجة إلى بعث رسل مؤيدين مكلمين من السماء لأن مجال الدين صار واضحاً وصار التدين مقرراً بالعلم لأن العلم كشف فى القلب الإنسانى منطقة لا غنى لها عن الدين . والخلاف الآن على الطقوس المختلفة فى الديانات فقط . وسيكون أقرب هذه الأديان إلى الفطرة والسبيل العلمية هو دين الإنسانية القريبة الموحدة [للحديث بقية]

(بغداد — الرستمية) عبد المنعم خلوف

جنـــاية أحمد أمين
على الأدب العربي
للدكتور زكي مبارك

– ١ –

لصديقنا الأستاذ أحمد أمين مؤلفات جيدة قامت على أساس المنطق والعقل ، وهو من كبار الباحثين فى العصر الحديث ، ولكنه على أدبه وفضله لا يجيد إلا حين يصطحب الروية ويطيل الطواف بالموضوع الواحد عاماً أو عامين ، وذلك سر تفوقه فيما نشر من البحوث والتصانيف

ولسنا نظلم هذا الصديق الفضال حين نحكم بأنه لا يصلح لتقييد الخواطر العابرة التى تطوف بالذهن من حين إلى حين ، لأن ذلك لا يتيسر إلا لمن رُزق موهبة أدبية تقيّد شوارد المعانى بلا تعب ولا عناء ، وتضيف المألوف إلى صف الطريف بعذوبة التعبير وقوة الروح

أحمد أمين باحث كبير بلا جدال ، ولكنه ليس بكاتب ولا أديب ، وإن كان من أساتذة الأدب بالجامعة المصرية !

ولم يستطع الأستاذ أحمد أمين على كثرة ما كتب وصنّف أن ينقل القارئ من ضلال إلى هدى ، أو من هدى إلى ضلال ، وإنما كانت مؤلفاته وبحوثه ضرباً من « التقرير » الذى يخاطب الأذهان ويعجز عن مخاطبة العقول والقلوب

وحياة الأستاذ أحمد أمين تؤيد ما نقول : فهو رجل لا يعرف الخلوة إلى الفكر والقلم ، ولا يتسع وقته لدرس ما فى الوجود وما فى الأخلاق من مشكلات ومعضلات ، وإنما يقرأ ويسمع ، ويعلق على ما يقرأ ويسمع ، بدون أن يتغلغل إلى أسرار المجتمع أو سرائر القلوب

وهيام الأستاذ أحمد أمين بالظواهر قد عاد عليه بأجزل النفع من الوجهة الشكلية : فهو رئيس لجنة النشر والترجمة والتأليف ، وهو أستاذ بالجامعة المصرية ، وهو عضو فى كل لجنة تؤلفها وزارة المعارف ، وهو مشرف على بيت الطرب ، وهو مؤلف كتب وناشر مقالات ، وهو صاحب ثروة يدبرها ويشقى فى سبيلها أعنف الشقاء .

وهذا كله مقبول ، ولكن الخطر كل الخطر فى ألا يقنع هذا الرجل بما وُفّق إليه فى حياته الرسمية والماشية

الخطر كل الخطر فى أن ينصب هذا الرجل نفسه حاكماً بأمره فى تقرير مصير الآداب العربية ، وهو لم يستطع إلى اليوم أن يقيم الدليل على أنه يتذوق المعانى والأساليب

الخطر كل الخطر فى أن يتوهم الأستاذ أحمد أمين أنه قادر على زعزعة ما أقامته الأيام من الحقائق الأدبية ، الحقائق التى ساد بها العرب فى أزمان طوال ، وكان لها سلطان مهيب فى أقطار الشرق وأقطار الغرب

ولكن ما الذى نقل ذلك الرجل الفاضل من حال إلى أحوال ، وحوّله من الروية إلى الارتجال ؟

ما الذى قضى بأن يثور أحمد أمين على ما خُلق له فيطالع الجمهور بآرائه من يوم إلى يوم وكان يلقاه من عام إلى عام ؟

لقد أصبح الرجل صحفيًّا ، وكان أستاذاً ؛ ولكنه لم يراع أدب الصحافة ، لأن الصحافة تقف عند المشاهدات وهو يهيم بأودية الفروض

ابتدأ هذا الرجل مقالاته فى مجلة الثقافة بتلخيص بعض الكتب الأدبية فكان من الصحفيين الأدباء ، ثم رأيناه يتحول فجأة فيلخص الأدب العربي فى جميع عصوره تلخيصاً يقوم على أساس الخطأ والاعتساف ، ويعوزه تحرير الحجة وتصحيح الدليل

فهل يظن أنه سينجو من عواقب ما يصنع ؟

هل يتوهم أن التجني على الأدب العربي سيمر بلا اعتراض ولا تعقيب ؟

إن لهذا الرجل صداقات مع كثير من الأدباء والناقدين ، وهو لذلك يرجو أن يصول ويجول بلا رقيب ولا حسيب

فما رأيه إذا أقنعناه بأن للأدب العربي أنصاراً يغارون عليه أشد الغيرة ، ويقفون لخصومه بالمرصاد ؟

ما رأيه إذا صددناه في وجهه جميع المسالك وقهرناه على الانسحاب من ميدان الدراسات الأدبية ؟

ما رأيه إذا فرضنا عليه أن يعود رجلاً يؤذيه أن يجانب المنطق والعقل ؟

« للحديث شجون » زكي مبارك

أعلام الأدب

بين أرستوفان ويوريبيدز

للأستاذ دريني خشبة

ظل أرستوفان يدعو قومه إلى السلم وينفرهم من الحرب ، وظل يسخر من القادة المغرورين ويستهزئ بشكل الحكومة وديمقراطية الغوغاء ، فلم يزد قومه إلا عناداً ، ولم تزدد جيوشهم إلا هزيمة ، ولم تزدد أثينا إلا فساداً واضمحلالاً . فلما يئس من دعوة السلام والتنديد بنظام الحكم انصرف عنهما آبياً ، وفرغ لأستاذه وعدوه يوريبيدز ، يقصر عليه نشاطه الأدبي ، ويصب عليه جام نقمته ، وما أورثه فشله في دعوة السلام من مرارة وغيظ

وقبل أن نخوض مع أرستوفان في هذه المعركة على نظر المسرح اليوناني لا نرى بداً من التمهل قليلاً لنلخص ملهاتين عظيمتين ألفهما الشاعر الساخر قبل الانقضاض على يوريبيدز — أما إحداهما فمن أمتع ما نظم أرستوفان ، وأما الأخرى فهي أمتع وأعظم ما ألف طول حياته ، إلا إذا كان فيما ضاع من كوميدياته ما هو أعظم منها

ففي سنة ٤١١ ق . م أخرج أرستوفان ملهاته ليسستراتا ، وقد نظمها تنفيراً لقومه من الحرب ، وصيحة مضحكة في سبيل السلام . . . ولا بد أن الأثينيين كانوا أمة من الجانين حين حاول أرستوفان أن يصرفهم عن آلامهم وما تترك الحرب في كل بيت من بيوتهم من مناحة تمزق القلوب وتفتت الكبود وتفجر المدامع ، ليضحكوا ملء أشداقهم من كوميديات مواطنهم المهرج العظيم !!

لله كم كنا نتمنى لو لم يفقد ذلك الجزء الثمين من كتاب الشعر (Poetics) لأرسطو الذي تناول فيه فلسفة الكوميديا لنعرف رأيه في علة ازدهار الأدب الكوميدي في فترة حروب البلوبونيز خاصة حتى بلغ أوجه بين أنين الجرحى وعبرات الثكالى وأحزان الموجوعين

يصور أرستوفان في ملهاته لستراتا بطلة حازمة تدعو إلى نبذ الحرب ونشر لواء السلم ، فما تزال بصويحباتها (نساء أثينا) تحضهن على ذلك وتكون منهن حزباً قوياً تنتهي إليه الغلبة في أثينا الديمقراطية ، فإذا احتج الرجال وأخذوا يناوئون حركة النساء اقترحت الزعيمة على توابعها حرمان الرجال من ممارسة (المسألة الزوجية !!) حتى يفيئوا إلى الحق ويرجعوا عن هذه المجزرة التي تودي بأبنائهم وبأنفسهم في غير طائل . . وقد تعمدنا هنا أن نعكس ما أثبته أرستوفان في ملهاته ، فقد قصد أن تكون النساء نساء أسبرطة وهو في الحقيقة لم يعن غير نساء أثينا . . . ثم تنتهي الكوميديا بخضوع رجال أسبرطة وجيشهم طائعين مختارين يطلبون الصلح من الأثينيين فتضع الحرب أوزارها ويكون السلام على الأرض (!!) وقد كان أرستوفان ماهراً في تلطيف عقدة ملهاته الفاجرة التي لا نحسب أنها كانت تخطر لأديب ببال في سبيل وقف حرب البلوبونيز ، تلك الحرب التي استمرت تهلك الحرث والنسل ثلاثين عاماً طوالاً فكادت تكون بسوساً يونانية بل هي كانت شراً من بسوس العرب ... فأي سلاح هو أمضى لوقف الحرب من إضراب النساء عن منح الرجال حق المباشرة الجنسية ؟ أليست الفكرة فكرة جريئة وإن تكن فاجرة داعرة ؟ لقد كان المسرح اليوناني الكوميدي يجيز ما هو أشنع من اللسستراتا أضعافاً مضاعفة ، وقد كان أرستوفان عفاً في ملهاته هذه إذا قيس بزميليه أمفيس وألكزيس اللذين كانا يحشدان في ملاهيهما ما لا يسمح قانوننا ولا عرفنا ولا أخلاقنا بعرض صورة منه ولا الخوض اليسير فيه .. ومع ذاك فقد كان أرستوفان لبقاً في التضحيك على نسائه وإن كان دائماً في جانبهن ضد الرجال ، وقد زاد في إشاعة الروح الكوميدي فيهن بجعلهن عربيدات لا يعقدن مؤتمراتهن إلا حين تعبث الخمر بهن وتروى مشاشهن جميعاً

أما أروع كوميدياته وأشهرها على الإطلاق فهي بلا شك (الطير)، وقد ألفها سنة ٤١٤ أي قبل لستراتا بثلاث سنوات فكانت آية آياته كلها حيث ارتفع بها إلى ذروة الفن الكوميدي وأشاع فيها المرح وخالف بينها وبين الواقع، وبناها على الكذبة الكبرى التي هي أساس الكوميدي اليوناني. وقد قلد فيها سوفوكليس من حيث سرعة العرض وتشابك الأدوار والتنقل من مشهد إلى مشهد في خفة وتشوف، كما قلد فيها الشاعر الغنائي الخالد أورفيوس من حيث روعة الأغاني وجمالها وانسجامها وعلوها عن مستوى الغناء الكوميدي الذي كان يقصد به إلى الشعبذة والتهريج لا إلى الفن الخالص الرفيع

استطاع اثنان من أهالي أثينا هما يثتيروس وإيوليديز، أن يكتشفا حقيقة عجيبة لم تكن لتدور في روع أحد ولا تخطر يوماً في قلب بشر... استطاعا أن يعرفا ما عرفه الشاعر سوفوكليس من قبل، وهو أن ملك الطير إيبوس هو نفسه الملك تيروس ملك تراقيا[٩] الذي كان يحكمها في سالف العصر والأوان قبل أن يُسحر إلى هدهد وقبل أن يتربع على عرش الطير مزهواً بتاجه الجميل ومنقاره الطويل وألوانه اللألاءة الحسناء... ولما كان يثتيروس مواطناً منبوذاً من قومه الأثينيين فقد اعتزم الرحلة إلى مملكة الطير ليجرب فيها حظه غير مستعين بأحد إلا بنفسه وزميله المتفلل الطواع إيوليديز... هذا وقد كان يثتيروس رجلاً مقداماً مفاجأً قوى الجدل حاضر البرهان نافذ الحجة لا يعييه أن يقنع عدته بالشيء وضده في وقت معاً. وكان يرى الرأى فيصيب به الحقيقة دائماً ولذلك كان قلما يرضيه تصرف الآخرين خصوصاً في شئون الحكم

أما إيبوس الهدهد ملك الطير، أو تيروس ملك تراقيا في سالف العصر والأوان، فملك عادل محبوب من رعيته المخلصة له، وهي رعية بدائية ما تزال تحبو في أول مدارج المدنية، ولذلك فهو دائب على النهوض بها وإصلاح حالها، ولذلك أيضاً يرحب دائماً بكل من يرد عليه من رعايا الدول المتمدينة الأخرى... وقد أكرم مثوى يثتيروس لهذا السبب، واستطاع يثتيروس

(٩) هكذا في مجموعة كوميديات أرستوفان طبعة هالت ج ١ لمترجمها هوكهام فرير وقد خالف ستريارت وسوداس ص ٢٨٦ إذ يذكران أنه كان ملك أثينا الأتراثا وهي قصة من فرير

من برجي العاجي

كان إبسن يقول: «الرجل القوى هو الفرد المنعزل»

كان إيماني شديداً بهذه الكلمة. وما برحت أرى فيها دستوري الذي لا ينبغي أن أحيد عنه. فأنا كلما انطويت على نفسي واعتصمت ببرجها أعطتني كل ما أريد من قوة ومنعة. وكلما التمست ذلك عند الناس أو عند أصحاب الجاه والسلطان شعرت أنهم أضعف من أن يستطيعوا المثل خيراً أو شراً. فليست قوتى المنشودة في ألقابهم ولا في ثرائهم، إنما هي في شيء ليس في مقدور أحد أن يمنحنيه غير نفسي. فالدولة لم تستطع ولن تستطيع أن تنقص أو تزيد في قوة قلبي أو رأيي، ولم تستطع ولن تستطيع أن تخفض أو ترفع من قدري وقيمتي في نظر الزمن والتاريخ. وهذا كل شيء. فأنا إذن لا أحتاج إلى الدولة في شيء، لأنها لا تستطيع أن تحميني أو تمنحني شيئاً ذا أثر في كياني الحقيقي

هذا رأى الأستاذ العقاد أيضاً في كتابه عن «الدولة والأديب». وقد أشار إلىّ فيها بما يفيد أني مخالف لرأيه. وهذا غير صحيح. فأنا يوم ذكرت الدولة في مقام الأدب لم أرد منها تشريف الأدب بحمايتها؛ فالأدب شريف بدونها وهي لا تستطيع له تشريفاً، إنما هو الذي يستطيع إذا أراد أن يشرفها ويشيد بها. إنما أردت من الدولة أن تنظم وسائلها المادية أسواق الأدب المادية كما تنظم بقية المرافق الحيوية الأخرى حتى يتطهر من السماسرة والمستغلين. إني أردت من الدولة أن تصون نتاجنا من جشع الطامعين كما تصون مال الأفراد من عدوان اللصوص. فلقد كان كل عجبي أن الدولة لا تعترف بمصالح الأدباء اعترافها بمصالح الأفراد، فهي تتركهم نهباً للناهبين حيث تقوم وتقعد إذا استبد تاجر بسوق القلل، أو استولى مرابٍ على بعض المال!

توفيق الحكيم

أن نقتنع بوجهة نظره فى تكوين دولة تحت سيطرته بحيث ينضوى تحت لوائها البشر ، وما كادت رعية الطير تسمع بهذا حتى ثارت ثائرتها وهددت الملك بالتمرد وإضرام نار الفتنة، للضغينة القديمة بينها وبين بنى آدم ولعدم ثقتها فيهم من قديم الزمان . وقد همت الطير بالفتنة فعلاً ، لكن بيثيروس ألقى فيهن خطبة طنانة رنانة ساد بها الموقف وأنقذ بها مشروعه من الفشل

وأنشئت الدولة برياسة ملك الطير ، وأقامت الرعية المتاريس على الطريق إلى مملكة السماء ، فانقطعت السبل بين الآلهة وبين الأرض ، ولم تقو أرباب الأولمب على إخضاع الطير فاضطرت أن ترسل سفارة من نبتيون إله البحار وهرقل الحديدى إله الرياضة وتريبول الإله البربرى الجاهل التمتام التفتاف (!) وقد اضطرت الآلهة إلى إرسال هـــذه السفارة بعد قبض الطير على إيريس (قوس قزح) مبعوثة حيرا وجاسوستها حين اجتازت بغير حق المتراس الفاصل بين مملكة الطير وطريق الآلهة إلى السماء ...

وقبل أن يصل أعضاء السفارة نزل الإله بروميثيوس — حامى البشرية ونصير الإنسان — مختالاً تحت مظلة كبيرة بين سمع زيوس كبير الآلهة وبصره ، ليزيد بيثيروس بحجته وليمنحه البركة والتوفيق فى مجادلته سفراء السماء ... وقد استطاع بيثيروس أن أن يخدع هرقل بأكلة شهية أعدها له فضمه إلى جانبه ، وكان هرقل يسيطر على صاحبه تريبول الجاهل البربرى التفتاف، وبذلك أصبحت الأغلبية فى جانب بيثيروس ، وغلب نبتيون على أمره ، وعقدت معاهدة بين الفريقين فاز فيها بيثيروس بأقصى ما كان يصبو إليه من تفوق وسيطرة ، فقد رضى سيد الأولمب — زيوس الكبير المتعال ! — أن ينزل طائعاً مختاراً عن صولجان ملك الدنيا (الأرض) إلى الأبد لأبيوبس المصعد ملك الطير كما قبل أن يزوج ابنته الخالدة الفتانة (باسيليا [1]) لبيثيروس

وفى الكوميديا شخصيات مضحكة أخرى لا يتسع هذا الملخص السريع لعرضها . وأهم ما يلفت النظر تعقيباً على ملهاة الطير هو روح الإلحاد والسخرية بالآلهة الشائعين فيها ، وهو روح يجب يدلنا على ما بلغته أثينا من الحرية الفكرية والتحلل من ربقة دينها الأسطورى بحيث لم يتحرج أرستوفان من الشبيبة على أرباب الأولمب إلى هذا الحد المضحك

ثم فرغ أرستوفان لشعر شعراء التراجم ، بل لشاعر أثينا القديمة ، يوربيدز العظيم ، فنال منه ما لم ينل منه شىء آخر ، وشهد عليه شبهات أضحكت خصومه حيث ألف فيه ملهاته الفاجرة الشنيعة الـ (Thesmophoriazusae) ، أو محاكمة يوربيدز كما يسميها المتأخرون والاسم مشتق من Thesmophoria (تسموفوريا) وهو عيد من أعياد اليونان القديمة كانت السيدات يقضينه فى أكتوبر من كل سنة تقديساً لربة الزراعة والمدنية سيرس (أوديمتير) ، ولم يكن يسمح للرجال ولا للذكور بوجه عام فى حضوره ... وقد ألفها سنة ٤١١ أى فى نفس السنة التى ألف فيها الليسيستراتا ، ولذلك جاء فيها أثر من سابقتها ...

نمى إلى يوربيدز أن الأثينيات المحتفلات بعيـــد سيرس فى الـ (تسموفوريا) سيثرن قضيته معهن لطول ما شن عليهن الغارة فى دراماته ولجرأته على الجنس اللطيف بإبرازه على المسرح ، وتناول ما لم يكن يليق تناوله من أسرارهن أمام الناس . وخوضه فى شئون الحب والعشق والغرام المحرم من غير ما تورع ولا استحياء ولا مراعاة للعرف ، ولا إبقاء على سنن السلف الصالح . وبلغه أيضاً أنهن سيصدرن عليه حكماً صارماً عسى أن يكون له فيه مرتدع ... فخاف يوربيدز واشتدت خشيته ووقع فى حيص بيص (!!) ، ولم يدر ماذا يصنع ؟ ثم بدا له أن يستعين بشاعر مخنث (!!) جميل الطلعة مشرق المحيا يمكن أن يتنكر فى زى النساء ، ويذهب إلى الـ (تسموفوريا) ويختلط بالنساء حتى إذا شرعن فى فحص قضية يوربيدز تولى هو الدفاع عنه بكل ما أوتى من ذلاقة وزلاقة وبيان ... لكن الشاعر أجاثون رفض ما يعرضه عليه يوربيدز من وجوه الإغراء والإغواء فيضرب يوربيدز أخماساً لأسداس ، ثم يبدو له فجأة أن يذهب إلى والد زوجته (حميه) — منسيلوخوس — فيرجوه أن يتنكر هو فى زى امرأة ثم ينطلق إلى مكان الاحتفال فيتولى الدفاع عن زوج ابنته وإلا وقعت الواقعـــة وحاقت به البلايا ... ويقبل حموه ، ثم يذهب إلى الـ (تسموفوريا) وما يكاد يتكلم حتى يشك النساء فى أمره ، حتى إذا تضاعف ريبهن هجمن عليه واكتشفن أنه رجل وأنه حمو يوربيدز ... ويسقط فى يد الرجل ، ويهرب منهن لائذاً بالمذبح ، حتى إذا ضيقن عليه الخناق وأوشكن يبطشن به انقض على أحد أطفالهن فاحتمله بكلتا يديه وراح يهددهن بقتل الغلام إذا مسسنه بسوء ... ويختلط حابل النساء بنابلهن ، ثم يكتشفن أن الذى يحمله الرجل ليس غلاماً ،

(١) تعنى باسيليا الملكة أو الملك

بل هو دن خمر مثلى بثوب ، فيثرن من جديد ويوشكن أن يوقعن به ... وهنا يظهر يوريبيدز نفسه ولكن متنكراً فى أشكال شتى ، فتارة يبدو كأنه منالوس حينما يكتشف أمر زوجته هيلين فى مصر ؛ ثم يبدو فى صورة الفتاة إيخو (الصدى) وهى تساعد الفتاة أندروميدا المصفدة فى خَيْد الجبل ... ويبدو مرة ثالثة فى شكل پرسيوس وهو يفك أصفاد أندروميدا ... ثم يفلح يوريبيدز آخر الأمر فى إطلاق سراح حميه بعد أن نجح النساء فى تصفيده فى قفص المجرمين ، وذلك بإغرائه صورة قوادة (هكذا !!) وذهابه مباشرة إلى الضابط الذى عهد إليه بالرجل ليحرسه ... وتأخذ القوادة فى الرقص وهز الردف والأثداء والابتسامات الخليعة الفاجرة حتى تزلزل فؤاد الضابط وتغريه فيطلق سراح منسيلوخوس[1]

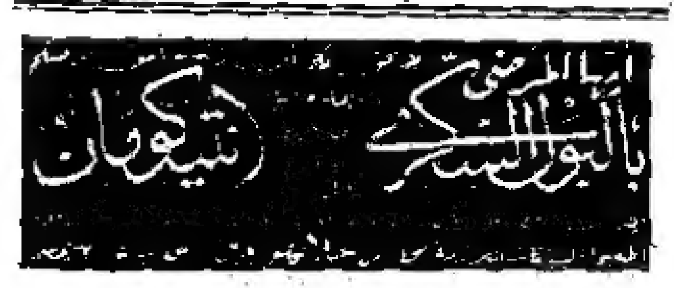
هذه هى الكوميديا الثالثة التى طعن بها أرستوفان خصمه العظيم يوريبيدز ، وقد حاول فيها استهزال طرائق شاعر الدرام الكبير ووسائله فى التعبير والأداء .. وقد استطاع بها أن يشهر حتى يوريبيدز وأن يحيل بقاءه فى أثينا إلى مرارة وقلق وبرم بالناس وبالحياة ... وقد ألف أرستوفان فى خصمه غير هذه الملهاة شيئاً كثيراً ضاع أكثره لحسن حظ الأدب — أو لسوئه ، لا ندرى ! — فلما مات يوريبيدز سنة ٤٠٦ ق . م ، ألف أرستوفان ملهاته الخالدة (الضفادع) سنة ٤٠٥ التى تسمو إلى أفق (الطير) والتى عرض فيها ألواناً جديدة من الخيال وجمال التصور ، وأطلق (لتفننه !) عنانه ، فاستحق التخليد برغم وجهه وجهله أحياناً ... وقد سبق أرستوفان فى هذه الملهاة إلى ابتكار النقد الأدبي المبنى على القواعد والقوانين ، بل هو قد وضع الكثير من قواعد النقد فى موازنته بين إسخيلوس ويوريبيدز فى حوارهما الشائق اللذيذ الذى اشترك فيه الإله باخوس

حزن الإله باخوس حزناً شديداً حين افتقد شعراء الدرام بعد سوفوكليس ويوريبيدز اللذين ماتا فى عام واحد فلم يجد من يسد فراغهما ؛ ولذلك اعتزم الرحلة إلى الدار الآخرة (هيدز) كما صنع هرقل من قبل عسى أن يرد منها يوريبيدز كما رد هرقل ألستيس ! ويبدو باخوس فى جلد أسد وقد تزيى بزى هرقل وحمل عصا غليظة مثل عصاه ، وإن يكن مع ذلك يبدو فى صورة مخنثة كدأبه دائماً — ثم يكون إلى جانبه عبده — أو خادمه — إكسانثياس — وقد علا صهوة جحش وحمل على كتفه عكازة طويلة (شروخاً !) علق فيها (عفلاته) وحقائبه وكل ما يلزم فى مثل هذه الرحلة الطويلة الشاقة من زاد وماء ونحوها ... وقد علق هذه الأشياء فى طرف العكازة حتى (تحفظ الموازنة) معه ... فى المشهد الأول الذى يشك المؤرخون فى أن يكون كذلك (أى فى أن يكون هو المشهد الأول لأن الملهاة غير مرتبة وقد ضاعت بعض جذاذات منها) نسمع أصواتاً من الضفادع (النشيط !) يتقاذف بها شعراء — أو شويعرون — يجهد كل منهم أن ينال رضا النظارة بإتقان التهريج وإجادة (التنكيت !) وقد وقف بينهم باخوس — بوصفه حامى مسرح الدرام ! — كالصنم لا يحير ... ثم ينتهى المشهد بنقاش سوفسطائى بين باخوس وخادمه ... ويهبطان إلى هيدز ، ويتفنن أرستوفان فى إنهاض الموتى لتكلم الزائرين ، ثم يأتى أروع مشاهد الملهاة وهو هذا الحوار الأدبي الرائع بين إسخيلوس ويوريبيدز من حيث منهاج كل منهما فى الشعر ووجهة نظره فى الأدب — وهنا لا يستطيع أرستوفان إخفاء غله على يوريبيدز ، بل يختم المشهد بنصرة إسخيلوس (الذى كان يمثل الفضيلة الأثينية والرجولة اليونانية ، والشجاعة والإقدام ... لا هذا الأحمق يوريبيدز الذى هو سبب فساد روح العصر ، وأصل خراب الأخلاق !) ... ثم تنتهى الملهاة بطرد يوريبيدز ليستقر فى مثواه السحيق من هيدز وقد رهقت وجهه قترة !

والدهش فى هذه الملهاة العجيبة هو قيامها على النقد الأدبي البحت ، وهو وإن يكن نقداً بدائياً إلا أن المعارضات التى أمتعنا بها أرستوفان تجعلنا نعجب كيف كان الجمهور الأثيني فى هذا العصر يسيغ مثل هذا الحوار الذى هو فوق أفهامه ، بل يضحك له ويغرق فى الضحك ! ثم كيف يحدث هذا، وقد كانت أثينا على شفا الهاوية ؟ ألم تدخلها جيوش إسبرطة بعد هذه الملهاة بسنة واحدة ؟ !

إن ضحك الأثينيين هكذا على نفر شعرائهم يوريبيدز هو آية انحلالهم وانقضاء دولتهم ... وقد حصل !

دريني خشبة



---

(١) الملخص عن ترجمة وم جيمس هيكى مجموعة دانت رقم ٥١٦

صفحة من حياة شاعر

عاشق ومجنون!...

للأستاذ صلاح الدين المنجد

كان اسمه جيرار دي نرفال، وكان مولده في باريس حيث النيوم البواكي وحيث الجو المكفهر. أما أبوه فكان طبيباً في الجيش، وأما أمه فكانت بنت بائع فقير. فنشأ في قرية أودعه فيها أبوه، بعد أن قضت أمه، وأرسل إلى القتال. فنبت بين الحقول الواسعة، والسهول المتوثبة نحو الأفق البعيد. وطابت له الحياة في هذه القرية التي لا تسمع فيها الأصوات النابية تتعالى على جنبات السين، ولا يُرى فيها فوران الناس بين الأحياء والشوارع، وإنما تسمع فيها أصوات العجائز الفانية، وهن يتحدثن عن طرائف السحرة والجان، ويرى فيها أسراب النغم تقودها الفتيات والرعيان. وأحب الحياة في القرية، فأثر ذلك في حياته. ثم خلّف القرية إلى باريس ليتلقى فيها العلم. وما كاد يبلغ الثانية والعشرين حتى أخرج للناس طائفة من أشعاره. ثم قرأ «غوته» فكلف بكتبه، وعزم على نقل «فوست» إلى الفرنسية. وسرعان ما نفذ ما عزم عليه، فجاءت آية رائعة أعجب الناس بها كثيراً. فقدروا صاحبها ورمقوه. ودفعه هذا الظفر الذي سعى إليه مذ سلك طريق الأدب إلى انتخاب قطع من شعر «رونسار» وأخرى من أشعار «غوته» و«شيلر» ليقدمها إلى الناس. ثم انكب على الشعر يقرأه وينظمه ووجد أن حياة الأديب، وما فيها من كسل وما فيها من أحلام، قد صادفت من نفسه هوى، فهو لا يصلح بعد اليوم إلا لها. فقد كان له مزاج الأديب وإحساس الشاعر. وكان كما يقولون عنه دقيق الفكر رهيف الحس واسع الخيال، يسكن إلى الأحلام، ويقضي ساعات من نهاره وساعات يعثر عن حلم يرضي عنه. ويظهر لنا من أشعاره أنه كان يجد في الأوهام راحة لنفسه... فهو لا ينفك يتوهم ويترنم. فهو يصف لنا، كيف يستشف أشباح الجان من وراء الغيوم... فيصيخ بسمعه إلى عزيفهم اليهم تارة والخفيف طوراً... ويسايرهم مع زفيف الريح الثائرة. ويراهم مختبئين بين طيات السحاب... فيناديهم، فيأتون سراعاً يحيطون به... يكلمونه قليلاً ويحدثهم قليلاً. ثم إنه ليتمثل نفسه طائراً... يقوده نفر من الجن، يسرح مصمم في الفضاء حتى يصل إلى السماء، فينظر إلى الأرض الخاشعة تحت قدميه، أو يتمثل نفسه حيناً آخر هابطاً إلى سيف البحار ليستجم قليلاً، ثم ليهبط إلى قرارة البحار فيرى الحيتان والأسماك، ويزور أميرات الجن في قصورهن المتلألئة في قاع البحار.

وكان لا بد له وهو في مثل هذا الحس الرهيف والخيال العميق والسن الباكرة أن يحب ويعشق. ولقد أحب، ولكن حبه كان لوناً من الحب لم يكن للناس به عهد من قبل. فإن فيه كثيراً من الطرافة التي تعجب، والفكاهة التي تطرب. فهو لم يعشق فتاة رآها في الشارع أو الطريق، ولا لقيها في الحقل أو عند النبع، وإنما عشق فتاة رآها في حُلمه. فلقد مسّ الكرى أجفانه ذات ليلة مساً رقيقاً أنساه نفسه ودنياه: «فعدت في قصر «موتو فونتين» أرتع بين رياضه، والقمر الساجي يرسل أشعته فهوى فاترة كليلة... تضيء القصر ذا الجبهة الحمراء ثم تختفي بين أزهار الزيزفون. وفجأة تبدو فتيات حسان... يرقصن على النغم، وينشدن الأناشيد! وكنت وحيداً فحدقت فيهن ورأيت فتاة شقراء ناعمة الشباب غضة الجمال قد اكتنفتها وأخذن يتمايلن معها. وسمعتهن يناديتها: تعالي يا أدريان! فملكت عليّ فؤادي! وأقبلن نحوي فرقصن. ها هي ذي بين ذراعيّ... أرقص معها. لقد سمعت من يهمس في أذني أنّ قبلها ولا تخف فهي لك. فضممتها إليّ وقبلتها، ثم جلسنا حولها لتغني لنا. فغنت بصوتها العذب الحلو أغرودة من أغاريد الأقدمين تفيض بالحزن، وتفيض بالسحر، فيها قصة تلك الأميرة التي أودعوها البرج الشاهق.. لأنها أحبت فتى غريباً.

«وكانت الفتاة الشقراء تغني فتصغي الأشجار، وتأتي أشعة القمر ترقص حواليها فتحفها بنور يبهر الأبصار ويشيها. وغفلنا عن الليل، وحسبنا أننا في جنة عدن، فقمت إلى غصن من الغار لأضعه على رأسها، ولكنها قامت تغني وتلهو... ثم اختفت بين الخمائل عن أبصارنا... وتلاشى صوتها... ونأى طيفها، ولكن صورتها ما تزال في نفسي لا تفارقها بعد أن تغلبت على كل صورة[1]»

(١) من قطعة له اسمها «أدريان»

تلك قصة حبه ، وقد كبر وحباً لهذا الطيف الذي فقده ورآه واعتقد أنه راجع إليه لا محالة . فسماه « زهرة الليل التي تفتحت تحت أشعة القمر الشاحب » وسماه « الطيف الوردي الأشقر الذي اختفى بين الأعشاب ، والتف بالسحاب »

وفكر شاعرنا طويلاً في زهرة الليل ، فانكب على السحر وما يمتّ إليه بسبب يدرسه ويقرأ أصوله كأنما أراد أن يسخره لإحضار أدريان . وكان يسمع عن الشرق أقاصيص حلوة طربت لها نفسه ودخل عنها هواه ، فتمنى لو زار تلك البلاد التي هبطت إليها الأحلام ، ورتعت بين جنباتها الأوهام ، فيدرك ما فيها من أمور يحيط بها الغموض والخفاء . وخُيِّل إليه أن أدريان هي بلقيس صاحبة العرش العظيم ، أتت إلى القصر الأحمر لتهمس في أذنه أسرار الدنيا وتدله على طريق الخلود

ويذكر لنا من كتب عنه أنه كان يعتقد في تقمص الأرواح، وأن نظرته إلى أدريان كانت نتيجة لذلك الرأي . وقد أصبح هذا الرأي لديه يقيناً عندما قضى بين دروز سورية ردحاً من الزمن غير قصير . على أننا لا ننكر أن المخدرات التي كان يقتل بها جسمه ويفني نفسه أثراً في إخلاده إلى ما أخلد إليه . والعجيب أن يعتقد بأن تلك الأوهام حقائق ، على حين يعتقد الناس أن الحقائق أوهام . وكان من خبره بعد ذلك أنه التقى ذات ليلة براقصة في حانة بباريس لحسبها أدريان الحبيبة ، وبُعث الهوى الأول وهاج الشوق القديم ، فقال في نجواه لنفسه : لقد عادت إليّ بعد أن اختفت بين الرياض . ولازم المقهى لا يغادره إلا لحاجة ليمتع بصره من جمال هذه الراقصة التي تقمصتها روح أدريان . وكان يغمرها بأزاهيره التي كان يرسلها وعليها اسمه ملتمساً بذلك لنفسه وصلاً عندها ، قانعاً بالنظر دون الكلام . ولكنها ازورّت عنه بعد أن رأت جنونه وعشقت فتى كان يغني فتزوجت به

وزاد جنون شاعرنا عندما تخطى الثلاثين ، فقد رأى في إحدى الأمسيات نجماً يضطرب في السماء ، فضحك له وظن أنه بلقيس تناديه لتذهب به إلى الشرق . فأخذ يقهقه ويثب ويقفز ويبكي ، وينزع أثوابه ويمد يديه نحو النجم المتلألئ منادياً تارة ومغرداً أخرى حتى مرّ به بعض من عرفه ، فأشفقوا عليه ورثوا لحاله وقادوه إلى الطبيب

وذهب ما ألمّ به بعد ثمانية شهور قضاها في مصح الطبيب « بلانش » فعزم على الرحيل إلى الشرق . فترك باريس سنة ١٨٤٣ وكان له من العمر خمس وثلاثون سنة قاصداً جزيرة مالطة، ثم رحل عنها إلى الاسكندرية فالقاهرة فراعه منها آثار مدنيتها القديمة وعزّها الخالي ، وأعجبه زيّ المصريين فتزيّا به ، وحاول أن يتعلم العربية فلم يفلح . ثم ترك مصر قاصداً سورية ومعه جارية سوداء اسمها زينب

وجد شاعرنا في سورية ضالة نفسه . فقد درس ما فيها من ديانات ، فأعجبته منها الدرزية . وزاد يقينه بالتقمص واعتقد أن بلقيس لا بد آتية إليه بعد أن فرت أدريان وأعرضت عنه جون[1] . ألم يجتمع ببلقيس فوق ثبج البحر على سفينة صنعت من الذهب ، ورصعت بالدر ، وسحت بها الجان ، فضمها إلى صدره وروى منها الظمآن من قبلاته ؟

وعاد عقله إلى الاختلاط فترك بيروت إلى القسطنطينية فأقام بها زمناً يقول : « بلغت البوسفور ... فالتفتُّ نحو مصر الجميلة فإذا هي وراء الأفق البعيد »

« لقد ذكرت وطني الذي تركته منذ شهور ، عندما وطئت قدماي هذه الأرض الأوربية التي استولى عليها المسلمون . والتفت حوالىّ ... فإذا أنا أمام حلاق أدمى بنص اللحى ... ومقدم القهوة . ورأيت جمعاً من الكلاب النائمة على الطريق . ولقيت شيخاً وقوراً يحمل عصاه الكبيرة متكئاً على المشي ... قد ملء عينيه ، يحلم بالجنة التي وعد الله عباده الصالحين » .

وعاد جيرار إلى باريس فكتب « مشاهد من الحياة الشرقية » أخرجها للناس بعد أربع سنوات . وما زال يتنقل بين السجون والمصحات والبلاد المجاورة ، يرماً ببلده وبمحيطه ، سائلاً ربه «ألا يبدّل من حوادث الكون شيئاً ، وإنما يبدل ما يحيط به من الأشياء ليعيش وحيداً في ظله الجديد » مخرجاً للناس « ذكريات ونزهات » و « بنات النار » و « قصور بوهيميا الصغرى » حتى لقي مصرعه الذي كان يخشى نحوه بيطء منذ زمن طويل .

فقد ألحت عليه الأوهام واشتدت في الإلحاح فأذعن لها ،

(١) كان اسم الراقصة التي أحبها : « جون كولون »

واشتط في الإذعان؛ وخيل إليه ذات ليلة أنه سيلاقي بلقيس، فكتب إلى صديق له : « لا تنتظرني هذا المساء؛ فإن الليل سيكون أسود أبيض » ثم هام على وجهه في طرقات باريس ذاهلاً حتى انتهى به السير إلى مكان فيه أقذار وأوساخ فطاب له الجلوس عنده . فلما وهن الليل سمع غراباً ينعق ... فحسب أنه رسول بلقيس الحبيبة إليه ، فناداه وحدثه . ثم قام إلى نافذة فربط بها حبلاً علقه في عنقه ونادى : « ها أنذا قادم إليك.» وما هي إلا ساعات حتى فاضت روحه وانتهت مأساته بعد أن قضى سبعة وأربعين عاماً يقظان حالماً . . . وخلّف لنا آثاراً مفعمة بالحسن من الوصف والتفريد من المعاني .

صلاح الدين المنجد

من العوائد المغربية الممتازة

سلطان الطلبة

بمناسبة تنزيهه في ربيع هذا العام

للأستاذ إدريس الكتاني

سيبدو هذا العنوان غريباً عن إخواننا في الشرق . وليس عجيباً هذا ؛ فالمغرب نفسه — لا تاريخه فحسب — غريب في نظر بعض الشرقيين عن الشرق . أما نحن هنا فليس منا من لا يعد المغرب قطعة من الشرق العربي ، وجزءاً لا يتجزأ من الجامعة الإسلامية الكبرى . فعسى أن يعمل إخواننا الشرقيون على هذا الاعتبار ، ويقلعوا عن تجاهلنا وتناسينا في وقت نعمل نحن فيه الشرق — ومصر في الطليعة — محط أنظارنا وكعبة معارفنا ؛ ونتطلع إليه كالمنحط في أسفل الوادي يروم معرفة ما فوق الروابي التي تعلوه

عفا الله عنا وعنكم يا إخواننا المصريين ! كلانا مقصر نحو أخيه، ولكن ما عذركم أنتم — وقد أتيح لكم أكثر من ذي قبل — أن تقولوا وتعملوا عملاً صالحاً ، وأن تمدوا يد الإسعاف لهذا الشرق النائي فتوقظوه من غفوته ؟ إن اليد الضعيفة مع أختها يد قوية ، وهي مع أخواتها الضعيفات أشد وأقوى. قد والله نقول كثيراً ولكننا لا نعمل إلا ونحن جهلاء ... عفا الله عنا ...

في تاريخ الحياة العلمية بالمغرب الأقصى - يحمل المغاربة وأهله يفخرون بأمجاد الأجداد ، ويعتزون بما خلفه ملوك العرب وأمراء الإسلام من المآثر الحميدة بهذه البلاد العربية الإسلامية . وفي الحق أن العهود التي تعاقبت على المغرب لا يخلو تاريخها من حسنات شتى في مصالح البلاد العامة . وكم نجد لهم في خصوص النواحي العلمية من اهتمام خاص بالعلم والعلماء والأدب والأدباء ، ولكن الذي يؤسف له حقاً أن الكتب التاريخية لا تزال حتى الآن موضوعة على الرفوف أو مدفونة في الخزائن تلمسها الأيدي



جانب من موكب (سلطان الطلبة) وهذه الصورة إهداؤه إلى الرسالة بعده

الحافلة إذ تركها غناء للأزمنة ، وطعماً للخنافس والعناكب

وليس يهمنا الآن أن نلم بجميع ما لتلك الدول من المفاخر الخاصة بنشر التعليم وتشجيع طلابه ، فهذا ما يملأ كتباً عدة ؛ وحسبنا من ذلك أن نأتي بوصف أحد تلك المظاهر (الممتازة) فهذه وحدها دليل ساطع على الشعور الكامن من قديم في نفوس ملوكنا نحو بث التعليم ونهضة الحياة العلمية . ويلاحظ على الخصوص في هذه الظاهرة مبلغ تعمق ملوكنا في فهم نفسية رعاياهم، وكيف ينفذون إلى قلوبهم فيملكون إحساسها بعبقريتهم الفذة ...

في ربيع كل عام من بدء ثلاثة قرون مضت يقيم طلاب العلم بفاس ومراكش « سلطنة » رسمية لها أبهة السلطان وجلال الملك ، تدوم سبعة أيام ؛ ثم في اليوم الثامن تتقوض وتنهار ويعود سلطان الطلبة بعد سلطنة أسبوع طالباً عادياً كما كان قبل أسبوع فقط !

هذه أدوار فكاهية طريفة تقوم بها الحكومة المغربية رسمياً في أواخر فصل الربيع من كل سنة، وهي عادة يلذ للسائح الأجنبي أن يشاهدها ويسجل شتى مظاهرها، وقد تسلسل العمل بها منذ القرن الحادي عشر دون أن يحدث ما يغير سيرها المعتاد

والحديث عن هذه السلطنة يجره إلى أفواه الطلبة طلائع أيام نيسان التي تتفتح فيها الطبيعة عن أكمامها ، وتبتسم الأغصان عن أزهارها ، وتحلو الحياة لأبنائها

فإذا هز نيسان نشوان طروباً يجر أذياله الخضراء الباسمة ، هب طلبة القرويين بفاس وطلبة الكلية اليوسفية بمراكش يطلبون من جلالة الملك الإذن لهم في إقامة سلطنتهم السنوية . وعند الترخيص لهم بذلك يجتمعون على انفراد بإحدى مدارسهم التي يسكنونها ، ثم يقوم « مقدم » المدرسة منادياً ببيع « سلطنة الطلبة » بالمزاد العلني ، ولكل طالب الحق في أن يبتاعها لنفسه مادام يستطيع أن يزيد في ثمنها على غيره ، فإذا انتهت فيها الرغائب ووقف ثمنها على طالب ما ، سجل العدلان الشرعيان اللذان يحضران هذا المزاد هذا البيع على الطالب المشترى ، ثم ينفض جمع الطلاب معلنين سلطانهم . أما ثمن هذه « السلطنة » فيتراوح غالباً بين ١٠٠٠٠ و ٥٠٠٠ فرنك . ويلاحظ أن شراءها خاص بمدينة الرباط عن البلد محظور على غيرهم . ولعل هذا الامتياز قصد إليه لترغيب أهالي البادية والحواضر النائية في ورود منهل العلم من كليتي القرويين وابن يوسف ، وتشجيعهم عليه بإدخال أسباب الغبطة والانشراح إلى صدورهم

أما مهمة هذه « السلطنة » فهي قيام (سلطان الطلبة) على رأس رعاياه في موكب رسمي حافل ، بنزهة على شط وادي الجواهر بضواحي فاس[1] وهذا الموكب في هيئته المؤلف منها صورة مصغرة لموكب صاحب الجلالة ملك المغرب مولاي محمد الخامس أيده الله

ويقوم « سلطان الطلبة » على أثر تعيينه بتأليف هيئة حكومته من نخبة أصدقائه الطلاب ومن بينهم وزير المالية ومحتسب يشرع في العمل والمساكات الفكاهية

وفي أول جمعة تلي ذلك ترسل الحكومة المغربية لسلطان الطلبة كسوة فاخرة وتقوم بتنظيم موكبه الرسمي . وعند الساعة الحادية عشرة يتحرك هذا الموكب من المدرسة التي يتفق أن سلطان الطلبة ساكن بها ، فيركب هو جواداً مطهماً وترفع المظلة الملكية « الشمسية » فوق رأسه ومن حوله الحراب تحملها الشرطة ، وتقفه موسيقى عسكرية ثم قواد (المشور) فرساناً حاملين السيوف ، وتتلوه حاشيته وجمهور غفير من رعاياه الطلبة مشاة على الأرجل ، ثم أصحاب الطبول والمزامير ، ويحيط بالجميع من اليمين إلى الشمال سلسلتان من الشرطة والعسس ومقدمي الحارات ، ويخترق الموكب الأزقة والشوارع سائراً بين أمواج صاخبة من الأهالي إلى أن يصل إلى الجامع الأندلس فيؤدي السلطان به صلاة الجمعة . ثم يتابع الموكب سيره لزيارة ضريح السلطان الأعظم مؤسس عرش الدولة العلوية الشريفة المولى الرشيد سنة (١٠٤٠ — ١٠٨٣ هـ) بداخل قبة الشيخ أبي الحسن علي بن حرزهم بمقبرة الزياء خارج باب الفتوح ، وهذا السلطان هو الذي سن للطلبة هذه « السلطنة » وحباهم بعطفه الكبير فهم يزورون ضريحه أولاً قياماً بواجب شكره وتذكاراً لعهده اللامع . وعند المساء بعد صلاة العصر يعود موكب « سلطان الطلبة » من حيث أتى بينما الوجوه تطفح بشراً ، والنساء يملأن السطوح بزغاريدهن المازجة العاشقة

وفي عشية اليوم التالي يخرج « سلطان الطلبة » في موكبه الرسمي كهيئته الأولى قاصداً إحدى ضواحي المدينة حيث ضربت خيام « دولة الطلبة » بسهول خضراء على ضفاف وادي الجواهر يتوسطها سرادق كبير لسلطان الطلبة وحاشيته . وتقدر هذه الخيام بنحو المائة غالباً خمسون منها للحكومة ، وهذه خاصة بالطلبة تضم كل منها جماعة من بينهم ، وباقي الخيام للأهالي الذين يلذ لهم أن يقضوا عطلتهم الربيعية بجوار « دولة الطلبة » التي تعيش أسبوعاً واحداً ، وقد يرخص لها بزيادة أسبوع آخر .

وتقوم واردات الميزانية العامة لهذه « الدولة » المحدودة بالزمان والمكان من :

١ — ثمن « السلطنة » الذي يدفعه « سلطان الطلبة »

(١) ومثل هذا يكون بمدينة مراكش

على أن تتعهد له الحكومة في مقابل ذلك بإجابة طلب يتقدم به إليها كإطلاق سراح مسجون له ، أو جعله موظفاً في بعض الإدارات ونحو هذا .

٢ — الهدايا التي يهديها جلالة الملك إلى الطلبة باسم سلطانهم ، وتتكون هذه عادة من الأكباش وأكياس الحنطة وأكياس من السكر ونحوها ، ومن المال أيضاً .

٣ — الهدايا التي يتقدم بها الأهلون إليهم عن طيب نفس .

٤ — الضرائب التي يجبيها « سلطان الطلبة » من وجوه البلاد وتجارها بواسطة (ظهائر) موقعة بإمضائه والتي يؤديها هؤلاء بكل سرور .

٥ — (الذعائر) التي تجمع بواسطة « محتسب » سلطنتهم الماجن الذي يرتدي حلة في شكل مضحك ، ويحمل في عنقه سبحة من التين يلتهم منها الواحدة بعد الأخرى من حين إلى آخر ، ثم يتجول في شوارع المدينة راكباً بغلة ، وواضعاً في حجره صندوقاً مغلقاً يظل يملؤه — من تعب فيه — بالفرنكات والريالات (كذعيرة) يفرضها على التجار والبقالين بزعم أنه وجد في مبيعاتهم غشاً يعاقب على ارتكابه

وفي خلال أسبوع هذه « السلطنة » ينصرف الطلاب جميعاً للمرح واللهو بقلوبهم وعقولهم معاً ، ويقبلون على حياة بعيدة عن حياة الجامعة فيها متعة الأنس وصفاء الحديث وطرب القلب .

فإذا مضت ستة أيام وأقبل يوم الأربعاء ، تهيأت « أمة الطلبة » حكومة وشعباً لاستقبال جلالة الملك أو خليفته — إن لم يكن هو في البلد — الذي يشرف مملكتهم الصغيرة في موكب عظيم ليقدم لهم هداياه الخاصة ، وفي العشية يتنظر « سلطان الطلبة » مع هيئة حكومته سلطان المغرب الفعلي ؛ حتى إذا لاح موكبه عن قريب ترجل الأول عن فرسه ، وتقدم إلى السلطان الأعظم مطأطئاً رأسه فيقبل يده الكريمة ، ويرفع إليه الكتاب المتضمن طلبه الخاص الذي يؤمل من جلالته الأمر بتنفيذه ، ثم يرجع إلى الوراء فيركب فرسه ، ويتقدم إلى أن يقف قريباً منه

وهنا تتمثل لنا الديمقراطية المثلى في ملوكنا الذين ورثوها كابراً عن كابر . ففي هذه الساعة يتنازل « سلطان المملكة الشريفة » فيتحدث إلى « سلطان الطلبة » بكل تواضع حديثاً تغذيه العاطفة ، وتوجيه الرغبة الصادقة في بعث النهضة العلمية .

وفوق ذلك يتنازل لسماع حديث دعابة ومزاح ممتع من محتسب سلطان الطلبة الحاذق في الفكاهة والمجون . فإن هذا يتقدم من جلالة الملك ويخاطبه بصوت جهوري أمام ألوف من الناس نحو قوله : كيف استطعت وأنت ملك كسائر الملوك العاديين أن تقف بجانب أكبر ملك في الدنيا تخضع لأوامره ملايين من النمل والذباب والضفادع والبراغيث وغيرها من الهوام والحشرات ؟ فيرد عليه جلالة الملك بنكتة رقيقة تمثل سمو الهزل عند الملوك ، ويسارع سلطان الطلبة فيعرب عن قبوله لجلالته ضيفاً في مملكته ويرحب به باسم أمته أكبر الترحيب . ثم يقوم المحتسب الماجن فيأتي أمام السلطانين ورجلاها خطيبين ضاحكين مايلين في الإشادة « بالزردة » والتنويه بالأطعمة الفاخرة

وعند الفراغ من هذه المظاهرة الرائعة يستأذن جلالة الملك من سلطان الطلبة في الرجوع فيأذن له بعد أداء الاحترام الواجب ويعود جلالته في موكبه الفخم إلى قصره العامر

وفي الجمعة التالية يقوم سلطان الطلبة في موكبه بأداء صلاة الجمعة في جامع أبي الجنود ، ثم يرجع لمقر دولته التي لا يبقى على انهيارها إلا يوم واحد . ففي مساء اليوم التالي يكون الطلبة على أهبة الرجوع لمدارسهم حيث تستأنف الدراسة بالكلية صباح يوم الأحد

ويدهشك بل يغريك بالضحك الذي لا تملك معه نفسك أن تجد الطلاب صباح يوم السبت يبحثون عن سلطانهم فلا يجدونه . لقد فرّ ليلة هذا اليوم مختفياً بين غصون ظلامها القاتم خوف أن يصبح على أبواب ثورة عامة من رعيته التي يلذ لها أن تنقض عليه يوم انتهاء سلطنته حتى لا يدخل إلى نفسه شيطانها فيوهمها أنه حقاً « سلطان الطلبة » وأن واجباً عليهم أن يخضعوا له ويقروا بسلطانه عليهم

هذه هي الرواية الخشبية التي ألفها السلطان « مولاي الرشيد » لطلبة العلم وحثهم على تمثيلها بأنفسهم كل سنة على مسرح الحياة لكي يعطيهم درساً عملياً في التدريب والتمرن على أن يكونوا

رجالاً أكفاء مقتدرين لهم ما للناس في الحياة من حق

وفي ظني أنه لو كان معروفاً لدى حكومتنا الماضية نظام الكشافة الحديث، لما جعلوا غير الفرق الكشفية مع موسيقاها اسدمة جنداً وحراساً لموكب «سلطان الطلبة» حرصاً على أن يكون المظهر طلابياً محضاً، يمثل أمة في الطلبة بسلطانها، وجندها وموسيقاها، وفي هذا وحده من الروعة والمظهر الخلاب ما يشوق الأبناء إلى التعلم ويحث الآباء على تشجيعهم عليه بالبذل والسخاء. أما الآن، فالمستقبل كفيل بأن يكون هذا وأكثر من هذا. وعسى أن ينتبه الطلبة من الآن إلى هذه النقطة الدقيقة فيؤلفوا من بينهم فرقاً كشفية تقوم بهذه المهمة، فوق أنها تكون عضواً عاملاً في النهضة للتربية الحديثة.

هذه رواية ناطقة أتينا على وصفها معتمدين على ما شاهدناه، وسمعناه، لا على ما قرأناه. فإن تاريخ نشوء هذه «السلطنة» والأسباب التي دعت إليها ووصف مناظرها ومظاهرها المترعة، كل هذا طواه الزمن في مهملات التاريخ. وما أكثر ما أهمل التاريخ وليت شعري ما الذي حدا بالمؤرخين المغاربة إلى عدم الاكتراث بهذه المنقبة الخالدة؟ أكبر الظن عندي أن هؤلاء اطمأنوا إلى بقائها وخلودها مشاهدة أكثر من اطمئنانهم إلى بقاء مؤلفاتهم التاريخية فاقتصروا على ذلك ولم يكتبوا ومن يدري؟ فلعلهم كتبوا وأضاعها عن جهلنا، وأيًّا كان الأمر فإن اطمئنانهم إلى بقاء «سلطنة الطلبة» قد صدق وسيبقى صادقاً إلى الأبد. ولا أنكر هنالك في بعض الكتب لمحة وثيقة وهي الأخرى أسطورة تاريخية وهي أسطورة فكاهية، فإذا سمحت الفرصة قصصتها عليك وإلى اللقاء يا قرائي في أشرق الحبيب

«فاس — المغرب» إدريس الكتاني



في بلاط الخلفاء

بين الشعبي وعبد الملك

للأستاذ علي الجندي

[تتمة ما نشر في العدد الماضي]

أقبل الخليفة على رجل جالس بين يديه يرتدي جبة[1] خز قد ابيض شعر رأسه ولحيته، وتدلّى من عنقه صليب ذهب، ورائحة الخمر تنفح من عارضيه! فقال له: ويحك! من أشعر الناس؟ فأجاب الرجل — وفي صوته رنة الزهو والخيلاء والثقة بالنفس — أنا يا أمير المؤمنين

ولم يكد الشعبي يسمع هذه الكلمة حتى تمعّر وجهه ودارت به الأرض، فذهل للمرة الثانية عن آداب السلوك في حضرة الملوك، فصاح بصوت يقطر غيظاً: من هذا يا أمير المؤمنين الذي يزعم أنه أشعر الناس؟

ما كان أغنى الشعبي عن هذا السؤال لو أنه روّى في الأمر قليلاً! ترى من يكون هذا الجالس بين يدي الخليفة جلسة الصديق المدلّ بمكانته غير أمدح مُدّاح الإسلام، وآدب أدباء النصرانية، ولسان تغلب ابنة وائل وربيعة، والمنافح عن البيت الأموي وشاعر أمير المؤمنين أبو مالك الأخطل؟

لم يستطع عبد الملك أن يكتم استحياءه من عجلة الشعبي بالسؤال وجبهه بشاعره الفذ وجرأته عليه! ولكنه تكلف الحلم ورمى الشعبي بنظرة نفذت إلى أعماقه قائلاً: يا شعبي، هذا شاعرنا الأخطل

وكان ما حدث كافياً أن يرد الشعبي إلى صوابه ويخفف من غضبه على الأخطل، ولكنّ شيئاً من ذلك لم يحدث، فولّى وجهه شطره — زاوياً ما بين عينيه — وهتف: يا أخطل، أشعر منك الذي يقول:

هذا غلام[2] حسنٌ وجهه ... مقتبل الخير سريع التمام

للحارث الأكبر والحارث الأصغر، والحارثُ خير الأنام

خمسةٌ آباؤهم ما هم، هُمُ ... خير من يشرب صوب الغمام

وكأن عبد الملك أعجبته هذه الأبيات فسُرّي عنه وقال: ردّدها عليّ. فردّدها الشعبي عليه حتى حفظها

وإزاء هذا التحدّي من الأخطل شعر بالصغار والضعة، فمسح بيده على جبينه الندي وقال في غمغمة المتحير: من هذا يا أمير المؤمنين؟ فمال عبد الملك على أحد جانبيه قائلاً: هذا الشعبي فقيه العراق. فزمّ الأخطل بأنفه وأرسل نفساً عميقاً وقال: أمير المؤمنين — حفظه الله — إنما سألني عن أشعر أهل زمانه، ولو قد سألني عن أشعر أهل الجاهلية لكنت حرياً أن أقول كما قلت

وهمّ الشعبي أن يتكلم فقاطعه عبد الملك بسؤال عن حاله — وقد شُغل بالحوار عن ذلك — فقال: إني بخير يا أمير المؤمنين

ومضى يتأنق في صوغ المعاذير عما كان من خلافه على الحجاج وخروجه مع ابن الأشعث

وكأنّ عبد الملك ملّ حقاً فابتدر قائلاً: مَهْ يا شعبي إنا لا نحتاج إلى هذا المنطق، ولست تراه منا في قول ولا فعل حتى نفترق! وأراد أن يزيد في طمأنينته فغير وجهة الحديث قائلاً: ما تقول في النابغة؟ فقال الشعبي: إن عمر بن الخطاب قد حكم له بالسبق في غير موطن على الشعراء. وذلك أنه خرج يوماً — وببابه وفد غطفان — فقال: يا معشر غطفان، أي شعرائكم الذي يقول:

حلفت فلم أترك لنفسك ريبة ... وليس وراء الله للمرء مذهب

قالوا: النابغة. قال: فأيكم الذي يقول:

فإنك كالليل الذي هو مدركي ... وإن خلت أن المنتأى عنك واسع

قالوا: النابغة. قال: فأيكم الذي يقول:

إلى ابن مُحرّق[1] أعملت رحلي ... وراحلتي وقد هدت العيون

أتيتك عارياً، خَلَقٌ ثيابي ... على خوف تُظَنُّ بيَ الظنون

فألفيت الأمانة لم تخنها ... كذلك كان نوح لا يخون

قالوا: النابغة قال هذا أشعر شعرائكم

(١) تراجم الأخطل في الأغاني وغيرها
(٢) الأبيات لنابغة الذبياني

(١) يمدح النعمان بن المنذر

ثم أقبل عبد الملك على الأخطل فقال : أتحب أن لك قياساً بشعرك شعرَ أحد من العرب ، أو تحب أنك قلته؟ قال : لا، والله، إلا أنى قد وَدِدت أنى قلت أبياتاً قالها رجل منا ؛ كان والله مُغْدِف(1) القناع ، قليل السماع ، قصير الذراع . قال عبد الملك : وماذا قاله؟ فأنشده الأخطل القصيدة :

إنا محيوك فاسلم أيها الطلَل ... وإن بَليت وإن طالت بك الطيل

حتى وصل إلى قوله :

قد يدرك المتأني بعض حاجته ... وقد يكون مع المستعجل الزلل

وقبل أن يسمع الشعبي رأى عبد الملك في الشعر ، هتف بالأخطل في لهجة المتهكم الساخر : تالله لقد قال القطامي أحسن من هذا ! فأدنى عبد الملك تفاحة إلى أنفه فشمها ، ثم قال : وماذا قال القطامي؟ فأنشده الشعبي :

طرقت جَنُوبُ(2) رحالنا من مطرق ... ما كنت أحسبها قريب المعنق

ومضى في القصيدة إلى قوله :

وإذا يصيبك – والحوادث جمة – ... حدثٌ ، حداك إلى أخيك الأوثق

ليت الهموم عن الفؤاد تفرقت ... وخلا التكلم للسان المطلق

فترنح عبد الملك طرباً إلى الشعر وإعجاباً به ، وصاح : ثكلت القطامي(3) أمه ! هذا – والله – الشعر !

ونظر عبد الملك إلى الأخطل ، فإذا هو كالمغشى عليه من الموت فأخذته الحمية لشاعره ، وداخلته الشفقة عليه ، فقال يمسح نفسه ويشد منها : ما أشعرك يا أخطل حين تقول في وصف الخمر

وتظل تنصفنا(4) بها قروية ... إبريقها برقاعه ملثوم

فإذا تعاورت الأكفُّ زجاجها ... نفحت فنال رياحها المزكوم

لم يخف على الأخطل ما أراده الخليفة ، فأتى على وجهه طرة ملؤها الغبطة والرضاء ! ثم عطف على الشعبي – والزهو يبعث بعطفيه – فقال : أسمعت بمثل هذا يا فقيه العراق؟!

فتربع الشعبي في مجلسه ، وتنحنح ، وأمرّ يده على لحيته إمراراً خفيفاً ، ثم صاح في وجه الأخطل : بعض تحفّلك ! فأشعر منك والله الذى يقول :

وأدكنَ(1) عاتقٍ جَحِلٍ سَبَحْل ... صَبَحتُ براحه شرباً كراما

من اللائي حُملن على المطايا ... كريح المسك تستلّ الزكاما

فقال الأخطل : ويحك ومن يقول هذا؟ قال الشعبي : يقوله شيخك أعشى قيس . فصاح الأخطل كمن أصابه مسّ : قُدّوس قدوس !!

ولم يسع عبد الملك إلا أن يحكم للأعشى على الأخطل : إذ هنالك بونٌ بعيد بين خمر شمها المزكوم ، وخمر تستلّ منه الزكام ! وهنا يشعر الأخطل بالخطر المحدق به ، ويرى أن ريحه قد لاقت إعصاراً ! وأنه رُمي من هذا العراقي الدخيل بالداهية النكراء ؛ لقد استطاع أن يسدد إليه سهاماً قاتلة في جبهة واحدة ؛ فما الظن به إذا تطاولت المدة وتراخت الأيام؟ ! إنه لا محالة سيغلبه على مكانته من الخليفة ، وسيسحب عليه ذيل الخمول ! فهبت في نفسه غريزة المقاومة التي أرهفها طول النضال بينه وبين جرير وغيره في ميدان المهاترة ؛ فورم أنفه وانتفخت أوداجه ، وانتفشت لحيته ، ودارت عيناه في رأسه كأنهما جذوتان مسعرتان ؛ وفغر فاه يدير فيه لساناً كأنه لسان ثور ! واتجه إلى الشعبي هاتفاً بصوت فيه مشابه من هدير البعير المغتلم : اسمع ياشعبي ، إن لك فنوناً في الحديث وشجوناً في المحاضرة ، وإن لنا طريقاً واحداً لا نحسن غيره ، ولست إخالك غير نائب من عنائك حتى تحملني على أكتاف قومك فأدعهم حرَضاً !!

تمثلت هذه الكلمات النارية أقاصيّها في الشعبي ! فهو لا ينكر صولة هذا التغلبي الذى لم يتورع عن هجاء الأنصار ! ويعرف أن أبياتاً من هجائه المضّ الخبيث قد ترمى بقومه من حالق وتجللهم عارَ الأبد ! فيكون أشأم همدانيّ على همدان !

ولم يكد يتمثل الشعبي سوء هذه المغبة حتى ذابت حماسته فتبع في مكانه كالمنتفخ أتلف شب ! وساورته الرعدة من قمة رأسه إلى أخمص قدميه ! فالتفت إلى الأخطل ضارعاً يقول : أقلني

(1) مغلق (2) اسم امرأة (3) يقصد التعجب منه لا الدعاء عليه
(4) تخدمنا وتسقينا

(1) يصف زقاً من زقاق الخمر بالدكنة والاتساع والعظم

هذه المرة يا أبا مالك! ولك عليّ عهد الله وميثاقه ألا أعود لمثلها أبداً ،

وأحسَّ الأخطل نشوة الظفر! فقال (باسطاً صوتَه): ومن يضمن لى ذلك أيها الشيخ؟ فرمى الشعبي إلى عبد الملك عينين منكسرتين متوسلتين قائلاً: أميرُ المؤمنين

فضحك عبد الملك حتى بدت له سِنّ سوداء كان يسترها!

وقال: أنا ضامن يا أخطل ألاّ يعرض لك شيء بعد هذا!

فقال الأخطل: وأنا قد صفحت عنه يا أمير المؤمنين!

وأراد عبد الملك أن يصل ما انقطع من الحديث فقال: ياشعبي أى شعراء الجاهلية أشعر من النساء؟ فقال الشعبي: الخنساء. قال: ولم فضلتها على غيرها؟ قال: لقولها فى أخيها صخر:

وقائلةٍ (والنعشُ قد فات خطوَها
لتدركه): يا لهف نفسى على صخرِ
ألا ثكلت أمُّ الذين غدوا به
إلى القبر! ماذا يحملون إلى القبر؟!

فقال عبد الملك: أشعر منها – والله – ليلى الأخيلية حيث تقول فى توبة:

مهفهفُ الكَشْحِ والسربالُ مُنْخرق
عنه القميصُ لسير الليل مُحتقِر
لا يأمن الناس مُمْساه ومُصْبحه
فى كل حيّ (وإن لم يَغْزُ) يُنتظر

كان لكلام عبد الملك أثر عميق فى نفس الشعبي، فانخزل انخزالاً شديداً وكُسِفَ به! لقد انتصر على شاعر الخليفة ولكنّ الخليفة لم يُسِمّ أن أخذه بثأر المنهزم! وقرأ عبد الملك فى وجه الشعبي ما يختلج فى صدره من أَلَمٍ بَرْحٍ! فقال: ياشعبي لعله قد شقّ عليك ما سمعت! فقال: إى والله أشدّ المشقة! إنى لم أُعدّك إلا أبيات الناسفة (عندنا غلام حسن وجهه ...) وقد أعدتنى أفضل منها

فقال عبد الملك: ياشعبي، إنما أعلمناك هذا، لأنه بلغنى أن أهل العراق يتطاولون على أهل الشام، ويقولون: إن كانوا غلبونا على الدولة فلن يغلبونا على العلم والرواية، وأهل الشام أعلم بعلم أهل العراق منهم!

ثم جعل عبد الملك يردد على الشعبي أبيات ليلى حتى حفظها، فالتفت إلى الخنصرة من بعد – وهى إشارة[1] الإذن بالانصراف – فنهض الشعبي مودعاً

وخطر لعبد الملك أن ينتفع (بدبلوماسية) الشعبي، فأوفده[2] إلى ملك الروم. قال الشعبي: فلما دخلت عليه جعل لا يسألنى عن شيء إلا أجبته، وكانت الرسل لا تطيل الإقامة فأمسكنى عنده أياماً. فحين أردت الانصراف قال لى: أمن بيت المملكة أنت؟ قلت: لا، ولكنى رجل من العرب ... فدفع إلى رقعة خاصة وقال: إذا أدّيت الرسائل إلى صاحبك فسلمها إليه. فلما رجعت إلى عبد الملك، دفعت إليه الرسائل ونسيت الرقعة، ثم تذكرتها بعد خروجى من الباب فكررت راجعاً ودفعتها إليه. فقال لى: هل قال لك شيئاً قبل أن يدفعها إليك؟ قلت: نعم، سألنى: أمن بيت المملكة أنت؟ فقلت: لا، ولكنى من العرب. ثم خرجت فلما وصلت الباب حتى ردنى إليه فقال: أتدرى ما فى الرقعة؟ قلت: لا. فنبذها إلىّ وقال: اقرأها. فقرأتها؛ فإذا فيها: عجبت لقوم فيهم مثل هذا كيف ملّكوا غيره؟! فاحتدمت غيظاً، وصحت مرتعداً: يا أمير المؤمنين، والله لو علمت ما فيها ما حملتها! وإنما قال هذا، لأنه لم ير أمير المؤمنين! فضحك عبد الملك وقال: أتدرى لم كتبها؟ قلت: لا. قال: حسدنى عليك فأراد أن يغرينى بقتلك! ولكن خاب فأله! فاذهب لا بأس عليك!

وقد نبل الشعبي فى عين عبد الملك وجلت مكانته، فبالغ فى إكرامه وتقريبه منه، حتى كان أول من يدخل إليه وآخر من يفارقه! وصفوة القول: أن الشعبي فى دولة عبد الملك هو الأصمعى فى دولة الرشيد.

علي الجندي

(١) الخاتم (٢) ثمرات الأوراق ج – ١

رأيي في الرجـــال

للكاتبة الإنجليزية أرسولا بلوم
بقلم الآنسة الفاضلة «الزهرة»

إني أميـل إلى الرجال وأختصهم بودّي، فوق ما أختص السيدات، لأني — بعد استثناء حالات فردية قليلة — أجد أنهم يمتازون عنهن بالحصافة وبُعْد مراد التفكير، وصدق النزعة كما أنهم أرحب منهن صدوراً، وأبسط خليقة، وأسمح عطفاً، وأسرعها فيئة، وأقدر على رد عُرام الغضب، واحتمال الإساءة.

وفي إمكانك أن تتشاجر مع رجل وتصارحه بما تراه فيه حقاً وتلمسه وتجرّح فيك عليه، وبعد مضي عشر دقائق تعودان إلى ما ألفتما من الصداقة والموالاة. ولكنك لا تستطيع شيئاً من ذلك مع سيدة، لأنها تذكر على الدوام الملامَ الذي كالته لها مرة، وقد يندمل جرحها منه ويلتئم في الظاهر، إلا أنه ينطوي على تَنَغُّل ويحترق على غِمْرة، ولأقلّ لمسة ينزف ويمجّ دماً.

والرجل يقول ما يقصد ويتمسك به. أما المرأة فلا تعرف على الدوام ما تقصد، ولذلك لا تستطيع التزامه، أو التمسك به. فقد تقول الأم لطفلها الملحاح: «لا يا حبيبي يجب ألّا تعتلي غارب تلك الأرجوحة المعلقة فيما بعد». ولكنها لا تجد مفراً من الانصياع له، والنزول على رغبته تحت ضغط تماديه في اللجاجة. فترافقه إلى الأرجوحة مرة أخرى. أما الأب فيقول: «إسمع! دعنا من هذه الأرجوحة وتعال بنا نعود إلى البيت».

وإنك لتعرف المسلك النهج الذي ترده، والمشرع الواضح الذي تقصده مع الرجل، ولكنك لا تعرف متوجهك مع المرأة، لأنها هي نفسها، لا تعرف لها متجهاً ظاهر المنار. وإنك لتجد في الرجل رفيقاً صالحاً، وصفياً ودوداً، وخدينا مخلصاً...

وإذا كنت في حاجة إلى مناصحته، فإنك تلقى فيه مشيراً صادق الضمير، يتحرى لك وجوه النصح، ويسبّب لك ما يهديك إلى عواقب أمرك، ويبصرك مواقع رشدك، ولا يشير عليك بما تعتقد أنه رأي الصواب الذي طوعته لك نفسك، ويحدثك بالإقدام على فعله. أما المرأة فتدلس عليك الرأي مجاراة لك، وإشباعاً لرغبتك في إنفاذه، وإغراء لعزيمتك بإتمامه، ولا يخطر لها أن تشير عليك بما تعتقد أنه أجدى لك في العقبى، وألزم للأحوط من أمورك. وقد أرتدي قبعة جديدة، وأتطلب رأي إحدى صويحباتي فتكره أن تزهدني فيها، وتميلني عنها، بعد أن اشتريتها. فتقول: «إنك تبدين فيها يا عزيزتي مدهشة فتانة!». وأسأل الرجل فيقول: «ما هذه القبعة؟ أهي صندوق لحم مقلوب...!».

ومن الغريب أنه لا يريد أن يجرح بسوء حين يجهر بهذا القول. وإني لشديدة الإعجاب بصدقه وإخلاصه في صراحته. لأني أعتقد يقيناً أنه بفطرته مجرد الملابسة، شجي المجاملة، لا يعرف كيف يداجي أو يداهن!

وليس من شأن الرجل أن يغتاظ بمثل السهولة التي تنال من المرأة، وتثير احتدامها، فقد تستاء وتتكدر بل تستشيط غضباً إذا اعتقدت أن إحدى صويحباتها قد قالت «رمم ثوبها الجديد وسيقتها إلى الظهور به»، أو أنها قد استمالت خادمتها القديمة الناصحة، أو أنها قد أخبرت صاحبتها فلانة أنك تتهم سلامة ذوقها في الأزهار التي تعاملك بها فتاة حديقتها! أما الرجل فلا يحفل شيئاً من هذا، ولا يزعجه تنديدك بنظام مغروساته وأزهاره، ما دام هو يحبّها ويتعهدها بما يلزمها من السقيا والري.

بيد أني أعتقد أن السيد «آدم» مرهوّ بذاته، وأعرف أنني إذا كنت أبغي النجح لطلب أقصده، فليس عليّ إلا أن أثني على مهارته ثناء جماً، وأمتدح اجتهاده وشهامته، وأطري عواطفه وحكمته — وأعرف أن محمدته هي نقطة الضعف فيه — وأنه قل أن يوجد في الرجال مَنْ لا يستخفه طبق شهيّ مصنوع من «مايونيز الكيبارى، وجراد البحر (الجمبري)...».

وإنك لا تجد للرجل ضريباً في صدق صداقته، وهذا سبب من أعظم الأسباب التي تحفزني على أن أخص الرجل بحبي وولائي.

وأعتقد كذلك أن الرجال في غضون عشر السنوات الأخيرة قد كيفوا ذواتهم تكييفاً صحيحاً، وفق ما استلزمته التغيرات والتطورات الحديثة. فقد مضوا إلى ميادين القتال، وقارعوا في سبيلنا، وجاهدوا جهاد الأبطال للذود عن أوطاننا، ولاقوا الأهوال، وأفنوا زهرة العمر في الخنادق الضيقة الملوثة بالجراثيم والأوبئة، وواجهوا الموت في المثاور والخنادق الصماء. ثم عادوا وماذا وجدوا؟ وجدوا عالماً غريباً أفرغ في قالب لا عهد لهم به من قبل. بل وجدوا عالماً جديداً، احتلت فيه المرأة مقام الصدارة

ووجدوا أننا قد سلبناهم أعمالهم ووظائفهم، إذ أطلقنا عقال

التقاليد ، وعدنا غير ذلك الجنس اللطيف الضعيف ؛ وأصبحنا الجنس القوي ، الآخذ منهم المهلة والأمر . ولو أن الأمر كان على العكس ، فكانت المرأة هي التي عادت من الحرب ، ووجدت كل هذا التطور، لما تأخرت لحظة عن اغتصاب السلطة من الرجل ، ومحاربته ومناجزته ، بذلك الأسلوب الجبار القاسي العنيف الذي تتوخاه في جميع منازعاتها ومشاحناتها ...

ولكن الرجل لم يفعل أي شيء من ذلك . بل جلس ساكناً وأخذ ينظر ويراقب سير الأمور. ولعله عرف أننا سنمل هذا التغيير الجديد على توالي الوقت ؛ ولعله كان حكيماً في أناته وهدوئه ، وبما قاساه من خشونة العيش وضيقه في تلك الخنادق الوبيلة الضيقة فأبى أن يناوش ويداحل ، واعتقد أنه وقف موقفاً نبيلاً تجاه جميع تلك التصرفات .

وإني لأجزم بأن الرجال ممدحون بوجه الإجمال : فهم أصدقاء خلصاء ، ومحبون كرماء ، ومتنافسون شرفاء ، وهم السواعد اليمنى القوية التي تمنى أن تتكئ عليها في أحايين ، أوفر السيدات استحواذاً على الحرية ، وأوفاهن استمتاعاً بنيل حقوق الأمة . وإني لأوثر الجنس النشيط الخشن على الجنس اللطيف في جميع هذه الأحوال ، لأننا لا نستطيع أن نكون من نظرائه وعدلائه في نبل شعوره ومناقبه العالية وصفاته الباهرة التي تتجلى في ميادين المباريات والمنافسات . ولقد كشف لي ابني الحدث هذه الحقيقة الرائعة إذ كنت أتلهى معه بالمصارعة ، وكان له الغلب علي في جميع الحلقات ، من بدايتها إلى نهايتها ؛ وإذ كنت سجينة بين ذراعيه لم أنثر من منازلته . وإني لآسف أن أقول : إن غريزة نسوية وحشية قد طغت على إحساسي بقواعد الشرف المتفق عليها في المباريات والمصارعات ، وجعلتني أتقض عليه في تلك اللحظة عضة ، وأعضه في مفاجأة وتنفلت ... فتراخ ذراعاه لتفرس في وجهي مؤنباً

وقال : « أواه منك يا امرأة ! » . وإن خير ما أعتقده في صفات الرجل ومميزاته هو هذا الحس [illegible] والذي يحملني على المحاضرة في غير مرة ولا تصدق بأن الرجل يحمل الزعامة وأنه على الدوام في النزال والمصاولة ..

« الزهرة »



من مذكرات بلنت

صفحات مجهولة من حياة الإمام محمد عبده

[تتمة ما نشر في العدد الماضي]

١٠ أغسطس سنة ١٩٠٣

كان الشيخ عبده قد نقل كتاب الفيلسوف هربرت سبنسر عن « التربية » من الفرنسية إلى العربية نقلة جزلة صحيحة ورأى بهذه المناسبة أن أقدمه إلى مؤلف الكتاب

فذهبت مع الشيخ عبده اليوم إلى برنتون لنزور سبنسر، وكنت قد كتبت إلى سبنسر في ذلك الشأن وأنبأته بأمر هذه الزيارة ، فأرسل عربته وسكرتيره مستر تروتون ليقابلنا في محطة برنتون . ولما وصلنا إلى المنزل ألفينا الفيلسوف الشيخ طريح الفراش من شهر ابريل الماضي . ولم يكن المرض الذي أصابه قد أثر في عقله بتاتاً ، بل ظل ذهنه صافياً وصوته قوياً ، ولكن بدنه كانت نحلة تحول به الهيكل العظمى . وقد استقبلنا وتحادثنا قليلاً قبل الغداء ثم عاد فاستقبلنا في الساعة الثالثة ، وحاول في بادئ الأمر أن يتكلم الفرنسية فتكلم ببطء وصعوبة . ثم عاد إلى الانجليزية ، ورحت بدوري أترجم للشيخ عبده

نعى سبنسر على السياسة الحديثة اختفاء « الحق » منها ، وتكلم عن حرب الترنسفال فنعتها بأنها وصمة في جبين الإنسانية وقال : لا شك أننا مقبلون على عصر « قوة » عصر تثار فيه الحروب من أجل السيطرة وتباح فيها جميع ضروب الوحشية

وتناول في جلسة الساعة الثالثة ظهراً حديث الفلسفة ، وسأل المفتي عما إذا كان الفكر يتطور حقاً في الشرق إلى ناحية الغرب . فقال الشيخ عبده : الواقع أن الشرق يأخذ عن الغرب أسوأ ما فيه وإن كانا ما زالا مشتركين في خير الأفكار وأرقاها .

وهنا قال سبنسر : لنذهب تواً إلى صميم الموضوع . إني أعتقد أن الفكرة عن القوة المحركة للوجود ، هي ما نسميه « الله » وما نطلق عليه نحن « الرب » وهي متقاربة عندنا وعندكم . فأجاب المفتي بنظرية وجد سبنسر أنها جديدة طريفة . فقال الشيخ عبده : إننا نؤمن بأن الله « موجود » غير متشخص . فسر سبنسر من ذلك غير أنه لم يلبث أن أجاب : إن الفكرة صعبة الفهم ، وزاد على ذلك : إنه من الواضح على كل حال أنكم من المتعمقين في التفكير تعمقاً نحن معاشر الأوربيين

ومع الأسف لم يكن في وسعنا أن نتمادى في هذه الأبحاث الطريفة ، فإن سبنسر لم يكن يسمح له بإطالة الحديث بالنسبة لمرضه . غير أني في أثناء عودتنا إلى المحطة سألت المفتي سؤالاً دقيقاً : أتعتقد أن الله يعلم أنك موجود وأني موجود أو لا تعتقد أن هذا العلم هو شخصيته ؟

— إنه يعلم

— أو لا تعتقد أنه يعلم بالطيب والخبيث؟

— إنه يعلم

— وأنه يسر بالطيب ويستاء من الخبيث ؟

— أجل .

ومن سوء الحظ أن الوقت لم يتسع لنناقش سبنسر ونقف على رأيه في هذا الأمر وإن أمكن أن نلمح برقاً خاطفاً من تفكيره في الموضوع

أما النساء اللواتي عرفتهن في صحبته ، فما زلن يلازمنه من سنوات أربع . وقد وقفت منهن على معلومات طريفة عن حياته الخاصة ، وأكثر من علاقة به امرأة صماء . وليس لديه صديق ، ولم يزره أحد من شهر ابريل الماضي سوى ثلاثة أو أربعة أصدقاء ، ولكن صحته بدأت تتحسن ، وشرع يستعيد بعض نشاطه ، وأمكنه أن يقضي الصيف قرب « تل ليف » وأن يخرج برفقتهن إلى نزهات خلوية ، وكان يجد سروراً مضاعفاً من رؤية الزهور والطيور ، وهو الآن يجالسهن ويلاعبهن الشطرنج والضامة .

وتعميماً للفائدة نثبت هنا ما كتبه الشيخ رشيد رضا في تاريخه عن الإمام محمد عبده ومقابلته للفيلسوف سبنسر لتمكن المقارنة بين ما سجله بلنت وبين ما دونه رشيد رضا :

« تقدم أنه في سفره الأخير إلى إنجلترا عام ١٩٠٣ زار الفيلسوف سبنسر ، وكان ذلك في ١٠ أغسطس . وكان الفيلسوف مصطافاً في برايتون من جنوب إنجلترا وقد نهاه الأطباء عن كثرة مقابلة الناس ، وعن الحديث مع أحد أكثر من عشر دقائق لمرضه مع شيخوخته ، ولكنه سر من حديث الأستاذ الإمام ، ودعاه إلى

الفداء معه ، وأطال الحديث إليه في فلسفة الدين والأخلاق والأفكار والمادية وسياسة أوربا

وإني أذكر ملخص ما حدثنا به أستاذنا من ذلك وأرمز إلى سبنسر بحرف « ف » المقتطعة من « فيلسوف » وإلى شيخنا بحرف « م » المقتطعة من كلمة « إمام » :

ف — هل زرت إنجلترا قبل هذه المرة ؟

م — نعم زرتها منذ عشرين سنة

ف — كيف وجدت الفرق بين الإنجليز اليوم والإنجليز منذ عشرين سنة ؟

م — إني زرت هذه البلاد في المرة الأولى لغرض سياسي خاص هو البحث مع رجال السياسة في مسألة مصر والسودان عقب الاحتلال البريطاني وأقمت أياماً قلائل لم يتسع لي فيها ما جئت لأجله . وقد ألممت بها الآن منذ أيام ولم أدرس حالة الناس ، وإنما يجب أن آخذ عنكم ذلك

ف — إن الإنجليز يرجعون القهقرى فهم الآن دون ما كانوا عليه منذ عشرين سنة

م — فيم هذه القهقرى وما سببها ؟

ف — يرجعون القهقرى في الأخلاق والفضيلة ، وسبب تقدم الأفكار المادية التي أفسدت أخلاق اللاتين قبلنا ، ثم سرت إلينا عدواها ، فهي تفسد أخلاق قومنا وهكذا سائر شعوب أوربا

م — الرجاء في حكمة أمثالكم من الحكماء واجتهادهم أن ينصروا الحق والفضيلة على الأخلاق المادية

ف — إنه لا أمل لي في ذلك لأن هذا التيار المادي لا بد أن يأخذ مداه وغاية حده في أوربا . إن الحق عند أهل أوربا هو الآن القوة

م — هكذا يعتقد الشرقيون ، ومظاهر القوة هي التي حملت الشرقيين على تقليد الأوربيين فيما لا يفيد من غير تدقيق في معرفة منابعها .

ف — هي الحق من عقول أهل أوربا بالمرة ، وسترى الأمم يختبط بعضها ببعض ليتبين أيها الأقوى ليسود العالم أو يكون سلطان العالم

ثم انتقلا إلى الكلام في الفلسفة الإلهية

ف — ما يقول علماء الإسلام في الخالق ، هل هو داخل العالم أو خارجه ؟

م — إن علماء الأثر يقولون إن الله تعالى فوق كل شيء بائن من العالم ، والمتكلمين يقولون : إنه لا داخل العالم ولا خارجه ، والصوفية القائلين بوحدة الوجود يقولون : إن كل شيء في العالم مظهر من مظاهر وجوده ، وذكر له ملخص مذهبهم .

نوفمبر ١٩٠٣

انتهز الشيخ عبده فرصة قدومه إلى انجلترا فزار جامعة أكسفورد واستقبل استقبالاً حافلاً من أساتذتها خصوصاً المستشرق براون الذي أقام له حفلة تكريم شهدها أساتذة الكلية. ولدى تفقد الشيخ عبده القسم الشرقي من مكتبة الجامعة عثر على مخطوطات عربية نادرة ، أكثرها معروف بالاسم فقط لدى رجال الأزهر ، واهتم اهتماماً زائداً بمخطوط لأحد فلاسفة العرب « السباعي El Sebaiq » ، فيه رسائل إلى فردريك الكبير . وقد ذكر الشيخ عبده أنه سوف يكلف إدارة الأوقاف بنسخ المخطوط

وتناول الشيخ عبده في حديثه معي زيارته لتونس والجزائر وشرح سوء حالتهما بالمقارنة بينهما وبين مصر ، ووصف تلك المقارنة بأنها كالفرق بين الظلام والنور . ثم عرجنا في الحديث على موقف الخديو فقال الشيخ عبده : إن الخديو جشع يعمل كل شيء في سبيل جمع المال ، وإنه يريد أن يستبدل ببعض ما يملك أطياناً وعقاراً كلها وقف . ثم إن الخديو ينم ظاهره عن صداقته ، ولكنه يعمل في الباطن لإقصائه عن وظيفة الافتاء

١٧ يناير سنة ١٩٠٤

أفضى إلىّ المفتي بأنه كان في الأسكندرية وقابل الخديو ، وهو كعادته معه ، له مقابلة حسنة ، ومقابلة سيئة . ظاهره ضحك وباطنه دسائس وانتقام . ويقول إن الخديو متضايق منه بسبب الفتاوى الثلاث التي أجاب بها عن أسئلة مسلمي الترنسفال وهي :

١ — هل للمسلم المقيم في بلاد أجنبية أن يأكل لحماً لم يذبح على الطريقة الإسلامية ؟

٢ — هل للمسلم المقيم في بلاد أوربية أن يلبس القبعة ؟

٣ — هل للشافعي أن يقف في صف واحد مع الحنفي في الصلاة ؟

وقد أجاب المفتي بما يرضي ضميره . ولكن الخديو اعتبر ذلك كفراً . مع أنه هو نفسه يأكل ويلبس القبعة ، ولا يقيم الصلاة في البلاد الأجنبية . على أن كرومر في جانب المفتي ، وذلك ما يوجب الدهشة !

٢٢ يناير سنة ١٩٠٤

تغدى المفتي معنا في الحديقة ، تحت شجر الكاب الأوربي ، وهو متألم لوفاة عالم من علماء الأزهر وخصوصاً أن الخديو مصمم على أن يحدث متاعب لخلفه وعند ما تكلم على الخديو نعته بقوله « وحلنا الصغير » !

ومن أحاديثه : أن الخديو منهمك الآن في الأعمال المالية والتجارية ، إلى حد أن كرومر خيره بين أن يظل خديوياً محترماً وبين أن يكون تاجراً محترفاً . وهذا حق ، وخصوصاً أن بعض أفراد أسرة محمد علي يحبون المال حباً جماً .

١٣ أبريل سنة ١٩٠٥

في حديث اليوم مع الشيخ عبده تمثل وأخبرنا بقصة طريفة لا بأس من إيرادها : ففي أثناء نفيه إلى بيروت عام ١٨٨٣ ، حدث أن كان قسيس مقيماً في انجلترا اسمه اسحق تيلور يقوم بدعاية واسعة النطاق الغرض منها توحيد الإسلام والنصرانية على أساس فكرة التوحيد الموجودة في الإسلام والشائعة عند الكنيسة الإنجليكية . وكان هناك شخص إيراني من أتباعه اسمه ميرزا بكر يشايعه في فكرته . وقد تمكن من التأثير في الشيخ عبده ، وفي طائفة من علماء دمشق ، فكتبوا إلى القس تيلور في الموضوع . وما إن وصل الكتاب إلى القس حتى فرح به ونشره مستدلاً به على صحة دعواه ، إلا أن السلطان عبد الحميد كلف سفيره في لندن أن يستقصي حقيقة الموضوع ويقف على أسماء موقعي الكتاب ، فقابل القس وحصل منه على هذه الأسماء ؛ وقد أحاق بهؤلاء العلماء فيما بعد عذاب أليم وقرر السلطان إبعادهم عن الديار السورية . . . ويقول الشيخ عبده إن السر في غضب السلطان أنه خشي أن يعتنق الإنجليز الإسلام ، ثم يطلبوا أن يكونوا أصحاب الدولة في الإسلام وتكون الملكة فيكتوريا ملكة المسلمين ... ويذهب السلطان من السلطان ... وسبحان مدبر العقول

١٩ فبراير ١٩٠٥

عاد الشيخ عبده من السودان وأطلعني على تفاصيل زيارته وأنه مغتبط بما رآه وشاهده ، فالحكومة هناك أحسن إدارة منها في مصر ، والأهالي قانعون حتى من مسألة النخاسة ، والدراسة في كلية غردون على أساس معقول موافق

ويعتقد أن قانون العقوبات السوداني أسهل وأحسن من القانون المصري ، وأن السردار يحكم بالعدل ويسود بالحكمة واللين ، وأن هناك شعوراً حسناً متبادلاً بين الإنجليز والسودانيين

١٧ مارس ١٩٠٥

ودعت الشيخ عبده هذا الصباح . ويلوح لي أن هذا السفر إلى الأبد فلا عودة منه . على أن المكان — عين شمس — حبيب إلى نفسي لشمسه المتألقة وسمائه الصافية وما يكتنفه من خضرة وطير . فيا إلهي ! من ذا الذي يرعى ذلك كله إذا ما ذهبت ؟

وحضر الشيخ عبده إلى المحطة يودعني وبقينا نتحدث طول الوقت إلى آخر لحظة تحرك فيها القطار . وكان وداعاً مؤثراً حزيناً لأن شعوري أوحى إلي بأني سوف لا أراه بعد ذلك

٨ يوليو ١٩٠٥

إن الحادث الذي هز عواطفي هو حادث وفاة الشيخ عبده . فإن ذلك من أفدح النكبات التي صادفتها في حياتي كذلك موته خسارة جسيمة للعالم الإسلامي . وإنه ليخالجني الريب في كيفية موته ، فربما كان موتاً غير طبيعي ، وإن له خصوماً سياسيين كثيرين

١٥ يوليه ١٩٠٦

قدم مصطفى كامل باشا إلى لندن وجرت بيننا مقابلة طويلة استعرضنا فيها موقف الخديو والأحوال الدولية وسياسة الاحتلال البريطاني والنازي مختار . . . ثم انتقلنا إلى الحديث عن المرحوم الشيخ عبده فذكره مصطفى كامل بتحفظ وأخذ عليه تمسكه بمنصبه الرسمي على رغم تحقير الخديو له . وهو لو احتفظ بكرامته وترك المنصب لحفظناه إماماً في الحرية والوطنية ، ثم تناول حادث وفاته وقال إنه كان بداء السرطان كما أخبره طبيبه قبل موت الشيخ بثلاثة شهور

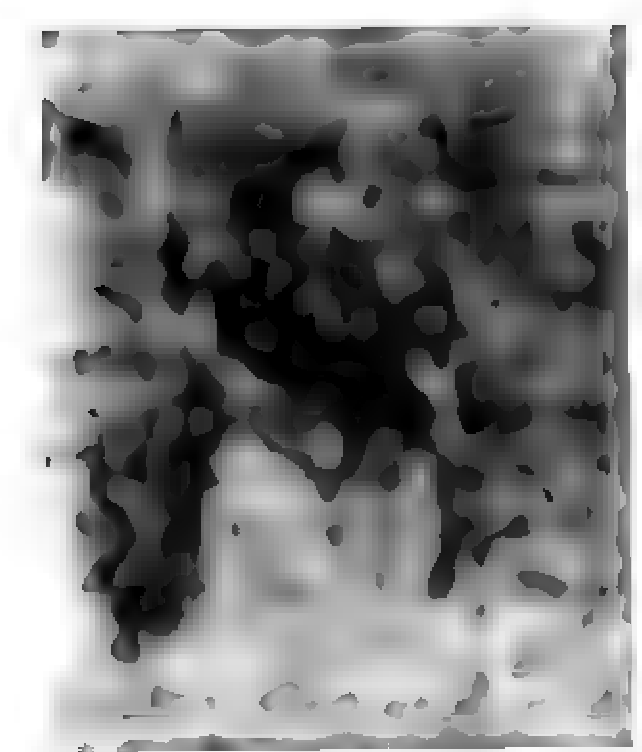
محمد أمين حسونة

التاريخ في سير أبطاله

أحمـــــد عرابي

أما آن للتاريخ أن ينصف هذا المصري الفلاح
وأن يحدد له مكانه بين قواد حركتنا القومية ؟

للأستاذ محمود الخفيف



ذكرنا أنه كان من نتائج تلك المذكرة المشؤومة اتحاد الوطنيين والعسكريين ، ونذكر الآن أن عرابياً مالبث يوماً أن عاد في نظر الجميع الرجل الذي يجب أن يحرصوا على معونته ، وتأهب عرابي ليأخذ دور الزعيم من جديد وقد كانت الزعامة تتزايل في نظر الناس من شريف

ولقد أحس مالت بما كان للمذكرة من أثر في عودة عرابي إلى طليعة الصفوف فأوفد إليه في مكتبه بوزارة الحربية صديقه بلنت ، وكان عرابي قد عين وكيلاً لهذه الوزارة كما بينا ؛ وكان مالت يطمع في أن يكسب عرابياً إلى جانبه ، أو على الأقل كان يتمنى أن يهدئ خاطره لعلمه بما يكون لمثل هذا العمل من عظيم الأثر في ذلك الموقف العصيب الذي سببته رعونة غمبتا وصاحبه

يقول بلنت . وقد ذهبت إلى ثكنة قصر النيل في ظهر يوم ٩ وكانت المذكرة قد وصلت في يوم ٨ فوجدت عرابياً وحده في مكتبه ، وهذه هي المرة الأولى والأخيرة التي رأيته فيها غاضباً ، وكان وجهه كسحابة الرعد ، وكان في عينيه بريق خاص ؛ وكان قد رأى نص المذكرة وإن كان لم ينشر بعد ، وقد سألته كيف فهمها فقال : أخبرني كيف تفهمها أنت ؟ وحينئذ أديت رسالتي فقال : لاشك في أن السير إدوارد ماليت يحسبنا أطفالاً لا نفهم معنى الكلمات . هذه لغة تحد وتهديد وليس في هذه الإدارة كاتب يستخدم هذه الألفاظ لغير هذا المعنى ثم أشار إلى الفقرة الأولى التي ذكر فيها الأعيان وقال : هذا تحد لطريقتنا وليس لإعلان اتحاد فرنسا وإنجلترة معنى إلا أن إنجلترة ستغزو مصر كما غزت فرنسا تونس ... ثم قال : دعهم يأتون فكل رجل وطفل في مصر سيقاتلهم . ليس من مبادئنا أن نضرب الضربة الأولى ولكنا سنعرف كيف نردها ثم قال فيما يختص بالمحافظة على عرش توفيق : « إن السلطان هو الذي يحافظ على عرش توفيق فليس في حاجة إلى ضمان أجنبي . ولك أن تخبرني بما تشاء ولكني أعرف معنى الكلمات أحسن مما يعرف ماليت ..

والواقع أن تفسير مالت كان هراء في هراء ، وقد شعرت لما صرت أمام عرابي بعقلي ، وخجلت من حمل إليه مثل هذا الهراء ، ولكني أكدت له أني أديت الرسالة كما ألقاها إلى السير ادوارد ثم قلت : وهو يرجوك أن تصدقها وأنا كذلك » .

هذا هو كلام بلنت ، ومنه نتبين مبلغ غضب عرابي لهذه المذكرة كما نفهم حاساً مما كان يجيش في نفس هذا الزعيم الثائر ، فهو لن يجبن ولكنه لن يبدأ بالعدوان ، وهو بعد ذلك يلمح نيات إنجلترة من هذه المذكرة كما يفعل السياسي البعيد النظر إذ يقرأ بين السطور كما يقولون . ومن كان عرابي صائباً في تصوير نيات الإنجليز فلسوف نرى أن جرانفيل كان في ذلك الوقت قد وطد العزم على التدخل بالقوة !

عاد عرابي إلى الميدان . وفي الناس من تبلغ بهم الغفلة إلى حد أن يأخذوا عليه هذه العودة ؛ وفيهم من يذهب بهم اتباع الهوى إلى أن يعدوا ذلك من أكبر خطيئاته قائلين في مثل منطق البلهاء إن كان ثمت للبلهاء من منطق ، إنه بعودته هذه قد ساق البلاد إلى ما سيقت إليه من دمار .

ومن المؤلم المثير حقاً أن يتبنى هؤلاء الناس هذا الكلام دون أن ينظروا في موقف الخديو وموقف الإنجليز على نحو ما بينا ، وهم لا يعلمون من المسألة كلها إلا ما شاع من أن عرابيا كان رجلاً ذا أطماع لا يدرى ماذا يعمل ؛ فكانت إذا هدأت البلاد لا يفتأ يعمل فرقه على إثارتها ليصل إلى تحقيق أطماعه .

وأحسب الآن بعد الذي رأينا من موقف أعدائه أن هذا الكلام قد أصبح خليقاً بأن يخجل منه قائلوه . وإنا لنكاد نقطع منذ الآن أنهم — بعد أن فرغ من سيرة هذا الرجل المظلوم على النحو الذي نسير عليه — لن يعودوا إلى مثل هذا الكلام أبداً ، وسبيلنا في إقناعهم الحجة التي نستخلصها من الحوادث في عدالة يوجبها الحق ، وفي عطف يتطلبه الإنصاف .

تعهد عرابي ألا يتدخل في شؤون الحكومة ، فكان إذعانه لهذا الطلب أمراً لا بد منه . ولو أنه رفضه لكان في ذلك مخطئاً أشد الخطأ ، ولكن عرابياً لم يتعهد أن يدع وطنه وشأنه لا تهزه بعد يوم عايدين نحوه عاطفة أو يحركه لنجدته ما عسى أن يلم بقضيته من الأحداث . ولم يكن ليستطيع عرابي أن يتعهد بمثل هذا التعهد ولن يستطيع ذلك غير عرابي من الناس ، ولو أنه فعل ذلك لأجرم في حق هذا الوطن جريمة ما كان ليغفرها له التاريخ . .

وكيف يفعل ذلك عرابي أو أي رجل غيره ولا يكون بذلك مجرماً مفرطاً في جنب وطنه ؟ وأي فرق بين مثل هذا التعهد وبين المروق والخيانة والجحود في أوضح صورها وأقبحها ؟

ألا إنه الحق كل الحق أن يطلب إلى بني الوطن ألا يتدخلوا في أعمال الحكومة ، ولكن على شرط ألا يكون من تلك الأعمال نفسها ما يحفز الناس إلى التدخل أو يوجبه عليهم . أما أن تفرط الحكومات في حق الوطن ، وأما أن توضع العقبات في سبيل قضيته ثم يطلب إلى الناس بعد ذلك أن يدعوا الحكومة وشأنها فهذا هو الباطل بأجلى معانيه وأشدها فجوراً ، ومن أطاع ذلك من الناس فقد أجرم في حق بلاده وضل ضلالاً بعيداً

لن يكون لقيام الحكومات من مبرر إلا العمل لخير المحكومين وصلاح أمرهم على هذا الأساس قامت الديمقراطية ، وبهذا المبدأ اقترنت الحرية ؛ ولكم نادى بذلك القادة ودعاة الإنسانية في الغرب منذ هدموا صروح الظلم وحطموا أغلال الماضي وفصموا سلاسل الرجعية . وما لنا نستشهد بالغرب وهذه الحكومة الاسلامية الأولى التي قامت في الصحراء قد جعلت تلك المبادئ أساس قيامها ، فما أروع وأجل أن يقول الخليفة الأول للناس : « أيها الناس إني وليت عليكم ولست بخيركم فإن أحسنت فأعينوني وإن حرفت فقوموني » وأن يقول لهم الخليفة الثاني : « من رأى منكم في اعوجاجاً فليقومه » فيرد عليه أعرابي من أوزاع الناس بقوله : « لو رأينا فيك اعوجاجاً لقومناه بسيوفنا » وما أملى على أبي بكر وعمر هذه المعاني السامية وما أمدهما بتلك السياسة العالية إلا ما ألهماه من روح تلك الشريعة السمحة ، شريعة دينهما التي تقدم بهما أحد راعيتها على أنها شريعة اسطرة ، فما كانت الحرية في شتى مظاهرها إلا بنت اسطرة ...

وأبلغ وأروع من قول أبي بكر وعمر قول الرسول الكريم : « إن الناس إذا رأوا الظالم فلم يأخذوا على يديه أوشك أن يعمهم الله بعقاب من عنده »

قبل عرابي أن يدع الحكومة وشأنها على أن تجرى الأمور وفق ما وضعته الثورة من مبادئ ، فكيف لعمر الحق كان يستطيع أن يحمل على السكوت نفسه وقد رأى من الدسائس الآثمة التي تحاك حول تلك الحرية الوليدة ما أغضب أكثر الناس اعتدالاً وأقلهم علاقة بالسياسة وشؤونها ؟

إذاً فالفرق كبير بين أن يتدخل عرابي في شؤون الحكومة وبين أن يغضب لما حل بقضية وطنه ، وفي هذا الغضب دليل وطنيته ووطنية كل غاضب معه . ولقد كان من أصعب الأمور على هذا الرجل أن يدع هذه القضية وشأنها ، بل لقد كان ذلك مستحيلاً عليه ؛ وإني لأرجو من الذين خاصموا هذا الرجل في غير حق بعد أن أصبح في ذمة التاريخ أن يستمعوا إلى هذا الرأي الذي أسوقه عنه ، ألا وهو أن الحرية كانت من طبعه لم يتكلفها يوماً ولم توجهه إليها الحوادث وهو يجهل كنهها كما يقول الذين أرادوا ألا يدعوا له محمدة إلا جعلوها بالباطل منقصة

كانت الحرية من طبع ذلك الجاويش الذي نقم على الجراكسة في الجيش استبدادهم فأكثر من الشغب عليهم . وكانت الحرية من طبع ذلك الضابط الذي اختاره زملاؤه ليحمل عريضتهم إلى رياض . وكانت الحرية هي التي دفعت هذا الرجل إلى أن يقف

ذلك الموقف الفذ عصر ذلك اليوم المشهود في ساحة عابدين ، ولسوف تكون الحرية هي الحافز له إلى وثبات أخرى ...

ولقد استوثق مستر بلنت من ذلك عند ما سعى إلى عرابي يطلب مودته قال : « وكانت غرفته الخارجية بل كان الشارع الموصل إلى المنزل يمتلئ كل يوم بجماعة الشاكين . وكان قد اتصل به نبأ عطفي على الحركة ورغبتي في مساعدة الفلاح فاستقبلني بأسمى مظاهر المودة لهذا السبب ، وللصلة التي تربط أسرتي باللورد بيرون الذي كان عرابي وإن لم يعرف شيئاً من شعره يمجده لدفاعه عن حرية اليونانيين »

وكيف كان يمجد هذا الفلاح اللورد بيرون نصير الحرية إلا أن يكون هذا تجاوباً بين نفس حرة وأختها ؟ ولقد كان بيرون يدافع عن اليونانيين لا عن المصريين ، فلم يكن حب عرابي إياه إذاً مشوباً بعاطفة غير عاطفة حب الحرية أينما كانت وكيفما كانت جنسية الداعين إليها وكيفما كان دينهم

ولنعد إلى خطبته التي ألقاها في محطة مصر . لقد أفصح فيها وهو يرتجلها عن كثير مما تنطوي عليه نفسه . والخطيب في مثل ذلك الموقف الحماسي ينسى نفسه فلا يملك التكلف والتصنع لأنه ليس به حاجة إلى ذلك ، بل لقد يكشف الخطيب عما يريد أن يخفيه إذا نسي نفسه في رهبة الموقف وحماسته دون أن يملك لذلك دفعاً . قال عرابي : « البلاد محتجة إلينا وأمامنا عقبات يجب أن نقطعها بالحزم والثبات وإلا ضاعت مبادئنا ووقعنا في شرك الاستبداد بعد التخلص منه » وقال : « وقد فتحنا باب الحرية في الشرق ليقتدي بنا من يطلبها من إخواننا الشرقيين على شرط أن يلزم الهدوء والسكينة .. »

وإنا لنرى في ذلك الكلام من الأدلة على أن عرابياً كان يتحرك بدافع من حبه للحرية ما لا تجدي معه مكابرة ؛ وعلى ذلك نتساءل: ألم يأن للناس أن ينصفوا هذا الرجل وقد قضى عليه أعداؤه ثم قضوا بعد ذلك على تاريخه الحق ؟

ألم يأن لأبناء هذا الوطن وقد فرغوا من قضية استقلاله وحريته أن ينظروا إلى هذا الرجل نظرتهم إلى زعيم جاهد في الوطن حق جهاده ، وأن يكفوا من تلك النظرة الظالمة التي تصوره رئيس عصابة من الأوزاع والهمج يسيرون على غير نهج ولا يبتغون من وراء سيرهم غاية ؟

ألم يأن لأبناء هذا الوطن أن يفطنوا إلى أن الاحتلال هو الذي صور عرابياً هذه الصورة المنكرة ليبرر بذلك نفسه ، وأنهم بمجاراتهم الاحتلال وصنائعه إلى يومنا هذا فيما اوهموا إنما يجنون على أنفسهم الثقلة ويسيئون إلى رجل ما فكر يوماً في الإساءة إلى وطنه ؟ وحتى إن كثرت أخطاؤه، فقد صحت نياته، وإن فاته النجاح فقد عظم في سبيل النجاح بلاؤه . ولقد قل في الفتنة نصراؤه، وتمدد غداة الروع أعداؤه

لا جناح على عرابي أن يعود إلى ميدان النضال في سبيل المبادئ التي اعتنقها المصريون ووطدوا العزم على تحقيقها. ولو أنه وقف في جهاده عند وثبته الجريئة يوم عابدين لحق عليه ما نسبه إليه خصومه من الخرق والسير على غير هدى ، ولكن هؤلاء الخصوم يلومونه على عودته إلى العمل قائلين لقد أجيبت مطالب الجند على نحو ما كان يرجو عرابي نفسه ، وهم في هذا ما يجهلون حقيقة الثورة العرابية وآمال الرجل الذي نسبت إليه تلك الثورة وأغراضه ، وإنما يعلمون ذلك ولكنهم يمارون فيما يعلمونه، ولكنهم في الحالين ملومون فلن يقبل منهم جهلهم ولن يغترم أحد على مماراتهم ومكرهم

وسيعود عرابي إلى الجهاد ويقف في وجه الدولتين الطامعتين. وسيسير زعيم الثورة على رأس جيش من أبناء هذا الوادي ليذود عنه في بسالة جريئة وحفاظ مر وفق ما توجبه الوطنية والرجولة. وهذا في الحق هو كل ما يطلب منه في مثل تلك الظروف؛ أما الفوز فأمر قد يخرج عن تصريفه ، وسبيل إليه محدود بحدود طبيعته ومقدرته . ولقد يتوافر للقائد من أسباب الفوز ما يكاد يعتقد أنه نيل ونزعه حقيقة لا سبيل إلى الريبة فيها ، ثم ينظر فإذا تلك الحقيقة خيال أو دون الخيال . ولئن أخطأ قائد فلن تحمل أخطاؤه على معنى آخر ، كما حملت أخطاء عرابي ظلماً وعدواناً على معاني الخيانة والمطامع الشخصية

« يتبع » الخفيف

نقل الأديب

للأستاذ محمد إسعاف النشاشيبي

٤٣٨ — بلع الأمانة فهي في حلقومه

قال أبو الحسن البغدادي الفكيك في نقيب ببغداد وكانت في عنقه غدة(1):

بلع الأمانة فهي في حلقومه ... لا ترتقي صُعُداً ولا تتنزّلُ

٤٣٩ — هذا لا يرسخ إلا في قلب مؤمن

في الأغاني: المدائني: شهد رجل عند قاض بشهادة. فقيل له: من يعرفك؟ قال: ابن أبي عتيق. فبعث إليه يسأله عنه. فقال: عدلٌ رضيّ. فقيل له: أكنت تعرفه قبل اليوم؟ قال: لا، ولكني سمعته ينشد:

إن الذين غدوا بلبّك غادروا ... وشلاً بعينك لا يزال مَعينا
غيّضن من عبراتهن وقلن لي: ... ماذا لقيت من الهوى ولقينا(2)

فعلمت أن هذا لا يرسخ إلا في قلب مؤمن فشهدت له بالعدالة

٤٤٠ — ما أعظم الله!

في (طبقات الشافعية) منع الشيخ أبو حيان أن يقال: ما أعظم الله، وما أحلم الله، ونحو ذلك. ونقل هذا عن أبي الحسن ابن عصفور احتجاجاً بأن معناه شيء عظّمه أو حلّمه، وجوّزه الإمام الوالد (تقي الدين السبكي) محتجاً بقوله تعالى (أبصر به وأسمع) والضمير في به عائد على الله، أي ما أبصره وأسمعه، فدل على جواز التعجب في ذلك. وفي شرح ألفية ابن معطي لمحمد بن إياس النحوي: سأل الزجاج المبرد فقال: كيف تقول ما أحلم الله وما أعظم الله؟ فقال: كما قلت. فقال الزجاج: وهل يكون شيء حلّم الله أو عظّمه؟ فقال المبرد: إن هذا الكلام يقال عندما يظهر من اتصافه (تعالى) بالحلم والعظمة، وعند الشيء يصادف من فضله، والتعجب هو التذكر له بالحلم عند رؤيته إياها (أي النعمة) عياناً. وذكر الوالد أنه يعني بالشيء نفسه أي أنه عظّم نفسه، أو أنه عظيم بنفسه لا شيء جعله عظيماً.

٤٤١ — خير لعمرك منه خص عامر

الحسن بن علي الأسواني:

دع التمدح بالقديم فكم عفا ... في هذه الآكام قصرٌ دائرُ(1)
إيوان كسرى اليوم عند خرابه ... خير (لعمرك) منه خصٌّ عامرُ

٤٤٢ — تحاسد الأكفاء

قيل لبعضهم: ما الذي أذهب ملككم؟

قال: تحاسد الأكفاء، وانقطاع الأخبار!!

٤٤٣ — هذه والله مكارم الأخلاق

في (الآداب الشرعية والمنح المرعية): كان بين سعيد بن العاص وقوم من أهل المدينة منازعة، فلما ولاه معاوية المدينة ترك المنازعة، وقال: لا أنتصر لنفسي وأنا والٍ عليهم.

قال ابن عقيل في (الفنون): هذه (والله) مكارم الأخلاق

٤٤٤ — كأنها طبخت بنار شوقي إليك

في (ثمار القلوب في المضاف والمنسوب) للثعالبي: نار الشوق مذكورة على الاستعارة، وكذلك نار الوجد، ونار اللوعة، ونار الغرام، وما أشبهها. وقد أكثر الناس فيها نظماً ونثراً. قال أحمد بن طاهر يهجو المبرّد:

ويوم كنار الشوق في قلب عاشق ... على أنه منها أحرُّ وأوقدُ
ظللت به عند المبرّد قائظاً ... فما زلت في ألفاظه أتبرّدُ(2)

وقال لي السيد أبو جعفر الموسوي يوماً وأنا معه على المائدة — وقد قُدّم لي لون في غاية الحرارة —: كأنها طبخت بنار شوقي إليك.

---

(1) الغدة والغدة: كل عقدة في جسد الإنسان أطاف بها شحم، والغدة طاعون الإبل وقلما تسلم منه (اللسان) وقد أغدّ البعير فهو مغدّ ومغداد ويقال: أغدّ الرجل إذا امتلأ من الغضب (الأساس)

(2) قال عبد الملك بن عبد العزيز: أنشدت أبا السائب قول جرير (غيّضن). فقال: يا ابن أخي، أتدري ما التغييض؟ قلت: لا. قال: هكذا، وأشار بإصبعه إلى جفنه كأنه يأخذ الدمع ثم ينضحه

(1) الأكمة: التل

(2) من قول شيخ شيوخ حماة في التورية:

[illegible] ... وآه من فصل البرد
يا (كامل) الحسن ليس يطفئ ناري ... سوى ريقك (المبرّد)

٤٤٥ — بعث داعياً ولم يبعث جابياً . . .

في (الطبقات) لابن سعد : أن حيان بن شريح عامل عمر ابن عبد العزيز على مصر كتب إليه . إن أهل الذمة قد أسرعوا في الإسلام ، وكسروا الجزية .

فكتب إليه عمر : « ... أما بعد ، فإن الله بعث محمداً داعياً ، ولم يبعثه جابياً . فإذا أتاك كتابي هذا ، فإن كان أهل الذمة أسرعوا في الإسلام وكسروا الجزية — فاطو كتابك ، وأقبل .

٤٤٦ — ... فاعلم أنه طلل

في (إعجاز القرآن) للباقلاني : سمعت الصاحب بن عباد يقول : أنشد بعض الشعراء — من أهل زنجان(١) — هلالَ بن يزيد قصيدة على وزن قصيدة الأعشى :

ودع هريرة إن الركب مرتحل ... وهل تطيق وداعاً أيها الرجل ؟

وكان وصف فيها الطلل ، فقال هلال بديهاً :

إذا سمعت فتى يبكي على طلل ... من أهل زنجان فاعلم أنه طلل ...

٤٤٧ — شطحات . . .

في (ميزان الاعتدال) : نقل عن أبي يزيد البسطامي :

سبحاني ...

ما في الجبة إلا الله ...

ما النار ؟ لأستندنّ إليها غداً . وأقول : اجعلني لأهلها فداء أو لأبلعنّها ...

ما الجنة ؟ لعبة صبيان ..

هب لي هؤلاء اليهود . ما هؤلاء حتى تعذبهم ..

٤٤٨ — يلام الصديق إذا ما احتفل

ابن القطرية :

دعاك خليلك واليوم طلّ

وعرض وجه الثرى قد بقل(٢)

لقدمن ناها وثمامة ... وإبريق راح ونعم المحل(١) !

ولو شاء زاد ولكنه ... يلام الصديق إذا ما احتفل(٢)

(١) زنجان مدينة في أذربيجان (القاموس) والعجم يقولون زنكان بالكاف (معجم البلدان)

(٢) يوم طل : وطب طيب (الأساس) (العارض) صفحة الخد ، والعارضان للانسان صفحتا خديه (بقل) بقل وجه الغلام خرج شعره : أي طلع نبت الأرض

٤٤٩ — قتيلنا لا يودى وأسيرنا لا يفدى

في (العقد) قال مسلم بن عبد الله بن جندب : دخلت أنا وزيان السواق العقيق ، فلقينا نسوة نازلات من العقيق ، لهن جمال وشارة ، وفيهن جارية خشابية العينين . فلما رآها زيان قال لي : يا ابن الكرام ، دمُ أبيك (والله) في ثيابها ، فلا تطلبْ أثراً بعد عين ، وأنشد قول أبي مسلم بن جُندب :

ألا يا عبادَ الله ، هذا أخوكمُ ... قتيلٌ ، فهل منكم له اليوم ثائر

خذوا بدمي إن متّ كلَّ مليحة ... مريضة جفن العين والطرف ساحر

قال مسلم : فقالت لي الجارية : أنت ابن جندب ؟ قلت : نعم . قالت : فاغتنمْ نفسك ، واحتسب(٣) أباك ، فإن قتيلنا لا يودى(٤) ، وأسيرنا لا يُفدى(٥) .

(١) (الثمامة) واحدة الثمام : ضرب من المطبخ (الأبريق) إناء مثل الكوز أو هو الكوز وفي (الكتاب) : يطوف عليهم ولدان مخلدون بأكواب وأباريق . وقال عدي بن زيد :

ودعوا بالصبوح يوماً فجاءت ... قينة في يمينها إبريق

(المحل والحل) في البيت الأول ، في عهد القائل تسكن لامهما ولا تشدد لأن التشديد مخل بالوزن .

(٢) (احتفل) : اجتهد ، وبالغ . وفي الأساس : احتفل في الأمر إذا احتشد واجتهد .

(٣) احتسبه أي اعتد مصيبته به في جملة البلايا التي يثاب بالصبر عليها (النهاية)

(٤) لا يودى : لا تؤدى ديته : يذهب دمه هدراً . . .

(٥) مروان بن أبي حفصة :

إن الغواني طالما قتلننا ... بعيونهن ولا يدين قتيلا

إلا أكن ممن قتلن فإنني ... ممن تركن فؤاده مخبولا



حول مقال

ما هي الحيـــاة؟

للأستاذ عبد الله عشري الصديق

سيدي الأستاذ الجليل صاحب الرسالة:

قرأت في العدد ٣٠٠ من «الرسالة» الغراء مقالاً للأستاذ نصيف المنقبادي في موضوع «ما هي الحياة» قابل فيه الكاتب الفاضل بين أظهر خواص الكائنات الحية وما يقابلها في عالم الجماد، وخرج من تلك المقابلة «بأنه لا يوجد فرق جوهري بين هذين العالمين» والحقيقة التي لا تقبل الشك هي أن هذا الفرق (الجوهري) بين الأجسام الحية وبين الجمادات موجود بصورة واضحة في كل واحدة من تلك الخواص التي أوردها الأستاذ في مقاله. وثمة فرق جوهري آخر يعلق عليه علماء البيولوجيا أهمية كبرى في تفهم ماهية الحياة. وسنعمد في هذه العجالة إلى إثبات وجود هذه الفروق متوخين في ذلك الفائدة العامة وخدمة الحقيقة والعلم

الشكل النوعي

يفهم مما جاء في مقال الأستاذ تحت هذا الباب أنه إنما يعني «بالشكل النوعي» الصورة الخارجية للجسم حياً كان أو جاداً؛ فهو يحدثنا عن أشكال البلورات الهندسية وكيف أن هذه ثابتة في النوع الواحد تماماً كما هو الحال مع الحيوان حيث «تتقارب أشكالها باقتراب أنواعها» وكل هذا صحيح لا غبار عليه إذا كان المقصود بالشكل النوعي هو الصورة الخارجية دون ما اعتبار للحجم. والذي نعرفه ويقره العلم الحديث هو أن الشكل النوعي يشمل زيادة على الصورة الخارجية الصفة الأخيرة التي ذكرناها وفيها تختلف الكائنات الحية عن الجمادات اختلافاً ظاهراً.

فالمعروف لدى كل إنسان هو أن للأحياء (المعاصرة على الأقل) أحجاماً ثابتة تختلف باختلاف أنواعها إلى حد ما. فالنملة مثلاً لا يمكن أن تكبر حتى تصبح في حجم الفيل؛ ولا يمكن لشجيرة القطن أن تنمو حتى تبلغ حجم شجرة السرو أو السنديانة، كما أننا لم نسمع قط بآدمي بلغ طوله ثلاثة أمتار[1]. أما الجمادات فإننا لا نعرف لها أحجاماً ثابتة؛ فبلورة ملح الطعام تدتكون في حجم الحريشة وقد تكبر حتى يزيد حجمها على حجم الكرة أو أكثر من ذلك فهي ليست ذات حجم ثابت خاص

صحيح أن أشكال الكائنات الحية في تغير وتحول مستمرين بحكم ناموس التطور، وهذه الحقيقة هي أصح دليل على وجود الفرق بين تلك الكائنات وبين الجمادات. والذي نعرفه ويعرفه معنا الأستاذ هو أن شكل الفرس بل وحجمه أيضاً قد تغيرا كثيراً عما كانا عليه قبل ملايين السنين. ومثل الفرس الفيل وغيره من أنواع الحيوان، ولكن العلم لم يحدثنا بأن بلورة الملح قد تغير حجمها أو شكلها منذ أن وجد الملح على هذا الكوكب. وأما القول بأن البلورات المعدنية المصرفة (تتطبع) إذا «عُطِّمت» في سائل مشبع من مادتها أو فوق المشبع أن تنمو فتعيد الجزء المصاب إلى حالته الطبيعية فهو دليل آخر على وجود الفرق بين الأحياء والجمادات، وإلا فأي معنى يبقى للفظة عطمت إذا لم يكن كل معناها هو تضمن قوة خارجية عن البلورة تقرب بين ذراتها فتتصل ببعضها بمجرد فعل الألفة الكيميائية؟ والفرق واضح بين ما يجري في هذه الحالة وبين اندمال الجرح أو نمو العضو المقطوع بنمو خلايا الجسم الحي من الداخل وبدون استعانة بقوة خارجية ظاهرة

تغذي الأحياء والجمادات

والفرق واضح أيضاً بين تغذي الأحياء وتغذي الجمادات فبينما

(١) في الحالات الطبيعية

تتغذى الأولى بتحويل المواد الأولية إلى مادتها العضوية كتكون كمية الهواء بزيادة جزيئات حمض الكربنيك في حالتها الطبيعية إلى جزيئاتها ، وليس لها في هذه العملية نصيب ظاهر ولا فائدة محسوسة . والذي يدعو إلى العجب حقاً أن يكون خير مثال عند الأستاذ لتغذي الجادات « بالمعنى الحقيقي التام » هو ما يحصل من احتراق الوقود في الآلات الميكانيكية فإن هذه كما هو الحال مع كمية الهواء لا تستطيع تحويل مادة الوقود إلى حديد أو غيره من نوع العنصر الذي تتركب منه أجزاؤها، وأما أن يكون التفكير والقوى العقلية وما إليهما من مصدر واحد فقط هو الطاقة الكيميائية الكامنة في مادة الغذاء فهو غلو لا نقر عليه أحداً

التنفس في الأحياء والجمادات

أما التنفس أو استعمال الأكسيجين الموجود في الهواء بواسطة الأجسام الحية فهو الفرق الجوهري الذي ذكرناه في أول هذا المقال وقلنا : إن العلماء يعلقون عليه أهمية كبرى في تفهم ماهية الحياة . وقد مرّ الأستاذ بهذه الخاصية بالذات مرّ الكرام وكان الأجدر به أن يُقصر كل مقاله على بحثها ودرسها . ولأهميتها الكبرى سنتعقبها إلى آخر كلمتنا هذه لنوفيها بعض الحق ونوضح ما ذهبنا إليه من أن هيا فقط يمكننا أن نعثر على الفرق الجوهري بين الأحياء والجادات

تحرك الأحياء وتحرك الجمادات

يختلف تحرك الأحياء عن تحرك الجادات في أن تحرك الأولى يكون بمحض إرادتها إلى درجة ما تختلف باختلاف مستوى الحيوان في سلم النشوء . أما تحرك الثانية فهو نتيجة لفعل القوى الخارجية كالرياح أو القوى الجاذبة أو الدافعة وغيرها من العناصر وليست حركة براونية Brownian Movement إلا مثالاً للنوع الأخير[1] كما أنه بعيد جداً عن الصواب أن تكون حركة الأجسام « تحت تأثير الجاذبية أو الألفة الكيميائية » حركة اختيارية ؛ فمجرد تسلط هاتين القوتين عليها يخرج بها عن دائرة الاختيار. ولكي نوضح ذلك نضرب مثلاً بحركة النمل وأنا أحبر هذا المقال ؛ فما أعظم الفرق بين هذه وتلك ؛ وخذ حركة ذرّات الأملاح في محلولاتها . أما حركات الحيوانات ذات الخلية الواحدة وهي كثيرة الشبه بحركة ذرّات الأملاح فإنها تختلف عن هذه

(١) Charles R. Plunkett, Outlines of modern Biology, N. J., Henry Holt & Co., 1930 P. 62

في أنها لا تكون إلا لدفع أذى أو الحصول على قوت ، ومعنى ذلك أنها تكون لفائدة تعود على الجسم الحي . وتختلف عنها حركة الآلات الميكانيكية في أن هذه الأخيرة تفقد فقداناً وقتياً متى نفد الوقود بينما يموت الجسم الحي إذا فقد الغذاء وليس الموت معروفاً بين الجادات

التأثر في الأحياء والجمادات

يخطئ الذي يقول بأن تأثر الأحياء كتأثر الجادات . فالمواد المفرقعة التي « تنتسف » وتنفجر لا تستطيع أن تجمع نفسها « وتهدأ » أو تخفي غضبها كما يفعل الأحياء . وتأثر مواد التصوير الشمسي بالضوء لا يجلب لهذه المواد فائدة ما بخلاف الحال مع الأحياء التي تتلون بلون المحيط لتتقي شراً قد أحدق بها ، أو على الأقل لمثل هذه الغاية تتلون وهي تسترد حالتها الطبيعية متى زال الخطر أو انتقلنا من المحيط الذي كانت فيه .

ثم إنه ليس صحيحاً أن الوتر في الآلة الموسيقية يهتز اهتزازاً (ذاتياً) عندما يدق الإنسان على وتر مقابل . والذي يحصل تماماً هو أن اهتزاز الوتر الأول يهز ذرات الهواء الموجودة في محيطه ، ويحدث هذا الاهتزاز أمواجاً تسبح في فضاء الكون بأسره . ولما كانت هذه الذرات قريبة من أخواتها فإنها تحدث بواسطة الأمواج الآنفة الذكر اهتزازاً تنقله هذه بدورها إلى الوتر المقابل؛ وبهذه الطريقة نفسها ينتقل الصوت من أقاصي الأرض إلينا عندما نجلس إلى الراديو[1] .

التفاعل مع البيئة

وهناك اختلاف آخر بين الأحياء وبين الجادات : هو تبادل التأثر بينها وبين المحيط ، وهذا يختلف في الأولى عنه في الثانية . فبينما لا يكون التأثر عند الأحياء إلا بقصد الحصول على فائدة ما أو الخلاص من خطر داهم إذا به ليس كذلك عند الجادات . ونحن لا نستطيع أن نفهم الجسم الحي مستقلاً عن محيطه ، فهو ناقص بدونه بخلاف الجادات التي لا أثر للمحيط فيها إلا بقدر ما يكون بينها وبينه من تفاعل كيميائي لا يتم إلا بتدخل عناصر غريبة عنها . فهذه الورقة التي أكتب عليها لا تتأثر مطلقاً بانعدام الأكسيجين في الغرفة ، وكل إنسان يعرف ما يقع للكاتب عندما

(١) راجع كتاب Oscar M. Stewart, Physics, Ginn & Co., revised edition part III wave motion & Sons.

يحصل ذلك لا سمح الله . والفور الذى يسببه الأكسيجين فى عالم الأحياء هو الفرق الجوهرى بينها وبين الجمادات .

نظرية « نوموجرام » الدم للبروفسور هندرسن[١]

كنا نعرف ضرورة غاز الأكسيجين للكائنات الحية. والواقع أنه لا يمكن تحديد الحياة بدون اعتبار أمرين فى غاية الأهمية ؛ هما : كيمياء الغازات وعلى الخصوص غاز الأوكسيجين ، والصفة التى يمتاز بها الجسم الحى من أنه يكون ومحيطه وحدة كاملة حتى ليفقد صفة الحياة فى غير ذلك الوضع . وهــذا بخلاف الحال مع الجمادات التى كل تأثرها ليس إلا من قبيل التفاعل السلبى مما لا يمكنها التسلط عليه بحال من الأحوال[٢] . وللمفهوم أيضاً أن العلم الحديث لم يستطع بعد أن يتوصل إلى معرفة جميع المواد الكيميائية التى يتركب منها البروتوبلاسم[٣] وكل ما توصل إليه فى هذا المضمار لم يعد إثبات نقطة واحدة تحقق أنها ذات أهمية كبرى هى أن المواد التى تتركب منها الأجسام الحية من التعقيد بحيث أنه لا يمكن معرفتها معرفة صحيحة تامة . وقد جاءت نظرية العلامة هندرسن بما يؤكد هذه النتيجة . وسنحاول أن نشرح قدر الاستطاعة هذه النظرية الفريدة؛ لأنها فقط يمكننا أن نعرف الفرق الجوهرى بين الأحياء والجمادات

كانت النظرية القديمة الخاصة بصلة الدم بغاز الأكسيجين وأهمية هذا فى التنفس والتغذية وإزالة الفضلات فى الجسم فى غاية البساطة ، فهى تتخلص فى أن هناك مادة فى الدم تعرف بالهيموجلوبن Haemoglobin تتحد بالأكسجين الموجود فى الهواء وفق المعادلة :

$$Hb + O_2 = HbO_2$$

ولا شك أن لهذا الاتحاد أهمية كبرى فى تفهم ماهية الحياة . غير أنه قد ثبت بالبحث أن ثمة نقصاً فى هذه المعادلة ؛ فقد قرر العلامة باركروفت Barcroft[٤] أنه زيادة على الصلة الموجودة بين كمية الأكسجين التى يمتصها الدم من الهواء فإن هناك صلة أخرى بين هذه الكمية وكمية ثانى أكسيد الكربون الموجود فى الخلايا الحية . ولهذا الاكتشاف قيمته من حيث إنه قد أرشدنا إلى تغير قدرة الدم على امتصاص الأكسجين بتغير كمية ثانى أكسيد الكربون الموجود فى الألياف التى يتركب منها الجسم الحى وهنا لزم تعديل المعادلة الأولى على الصورة الآتية :

ع (HbO_2 و O_2 و CO_3) = ٠

ومعنى هذا أنه متى عرفنا مقدار أى اثنين من هذه المواد غير التامة التركيب أمكننا معرفة المادة الثالثة بمجرد النظر إلى المعادلة . غير أن العلماء الثلاثة ج . س . هالدين ، وكرسيتانوس ، ودوجلاس[١] قد استطاعوا إثبات وجود صلة أخرى مشابهة التى ذكرناها بين ثانى أكسيد الكربون، والكربونات[٢]، والأكسجين إذ وجدوا أن كمية الكربونات تقل بزيادة كمية الأكسجين؛ وهكذا تعدلت المعادلة الثانية فصارت :

ع ($BHCO_3$ و CO_2 و O_2) = ٠

وبمتابعة هذه الطريقة فى التحليل استطاع العلامة هندرسن أن يثبت وجود معادلة رابعة :

ع (Co_2 و $B\ HCO_3$ (H^*)) = ٠

ثم خامسة : ٠ = (BCl و O_2 و Co_2) ع

ومن هــذا يفهم أننا لا زلنا فى المرحلة الأولى فى محاولتنا الوصول إلى معرفة كيمياء الدم، إلا أن ما عرفه العلماء حتى الآن قد أوجد مجالاً للتفكير أدى إلى إجراء تجارب عديدة أثبت بها العلامة هندرسن أن الدم فى تفاعله مع المحيطين الداخلى[٣] والخارجى إنما يمثل توازناً Equilibium ذا عشرين ضلعاً تدخل فى تكوينه ست مواد يربط بعضها ببعض عشرون معادلة .

هنا يجدر بنا أن نذكر بعض خواص هذا التوازن، ففى هذه وحدها يكون الفرق الجوهرى بين الكائنات الحية وبين الجمادات . وأهم هذه الخواص هى اشتراك الأكسيجين فى ذلك التوازن بل إنه (أى التوازن) لا يتم مطلقاً بدون الأكسجين؛ فأهمية الأكسجين للجسم الحى أكبر من أهمية أى مادة من المواد التى يتركب منها بل هى كما أثبت البحث فوق ذلك بكثير وهذا ما نشبه

(١) L. J. Hendersons Nomogram of The Blood.
(٢) F. S. C. Northrop, Science and First Principles, N. Y., Macmillan Co., 1931 pp. 173-173 Seba Eldridge, The Organization of Life, N. Y. Thomas Y. Crowell Co. 1925 pp. 12,13
(٣) F. S. C. Northrop, Science and First Principles, p. 164
(٤) J. Barcroft, The Respiratory Function of The Blood, p.p. 16 & 65 ff. Cambridge Press.

(١) J. S. Haldane, Respiration, Ch. XIV, p. 88, Yale Press
(٢) Combined Carbon dioxide or carbonate
(٣) داخل الجسم وهو لسيولى



دراسات في الفن

الحب والمرأة والفن

للأستاذ عزيز أحمد فهمي

جانب كبير جداً من الفنون يدور حول الحب ولا عجب في هذا، فالحب عاطفة تشترك في تخليقها عدة غرائز من أقوى الغرائز التي يقوم بها كيان النفس الإنسانية وهي مبعث العواطف. ومن هذه الغرائز التي تخلق الحب في النفس: غريزة حفظ النوع، وغريزة السيطرة، و « غريزة العشرة » وهي أخص وأعنف من غريزة الاجتماع، و « غريزة الوثنية » التي تنزع بالإنسان إلى تجسيد ما يصبو إليه وتحديده والتي تخرج به من إبهام المتجرد إلى وضوح الملموس، وهي غريزة لم تنضب إلا عند الذين يملمن إحساسهم التدريب على الاتجاه نحو معان يجبونها ويدهش لهم العالم ويتساءل: كيف يجبونها؟

وهذه الغرائز التي تخلق عاطفة الحب كل منها قوي عنيف. ونفس الفنان بطبعها أكثر طواعية للتأثر من غيرها لأنها أشد حساسية من غيرها. وإذا كانت نفس الفنان تلبي مسرعة نداء المؤثرات الخارجية عنها فأجدر بها أن تستجيب الهتاف المدوي في جنباتها. فلا غرابة إذن أن يزدهر الحب بين أهل الفن أكثر مما يزدهر بين غيرهم، ولا غرابة بعد ذلك إذا دار جانب كبير جداً من الفنون حيناً حول الحب، فليست نفس أخرى أقرب إلى نفس الفنان من نفسه، وليس أحب إليه منها، وليس أجدر منها بالالتفات النفسي والحسي، وليس أشد منها وضوحاً لديه، وليس شيء أبعث منها على التسجيل

ولكن الذي نلاحظه هو أن جانباً كبيراً جداً من فنون الحب يئن بالشكوى من هذا الحب، ويرشح بالقلق له، ويستطعمه متشفعاً إليه بالفن ذاته، كما أننا نرى في هذه الفنون المكلومة كثيراً مما يشبه علامات اليأس، وقد نرى منها قليلاً مما يشبه علامات التمرد الذي يعقب اليأس، إذ ينكر بعض الفنانين الحب إنكاراً، وإذ يسخر بعضهم من المرأة سخرية شاذة لا أصل لها في الطبيعة ولا شبيه لها في حياة الحيوان

وهذا يشهد بأن الفنانين فاشلون في حبهم، أو هو يشهد على الأقل بأن كثيرين جداً من الفنانين يفشلون في حبهم. فما الذي يدعو إلى هذا؟ أهو قصور في رجولة هؤلاء الفنانين؟ أم هو التواء حاد بنفوسهم عن المسلك الطبيعي الصحيح الذي يجب أن يسلكه الذكر مع الأنثى ليقتنها بنفسه؟ أم هو انحراف من أساليب الأرض إلى أسلوب جديد بعيد تسعى الحياة إلى اصطناعه وستأخذ به يوماً ولكن بعد أن يكون هؤلاء الفنانون قد ركلوا الأرض إلى عالم يرتاحون فيه ولا يشقون؟ أم هو هذا كله مزيجاً مركزاً؟

عندما نقول إن الجسم الحي هو عبارة عن توازن فزيقي - كيماوي[1] ذي قوة حيوية يحصل بين المواد الموجودة في داخل الجسم، وبين أخواتها في الخارج. ويفهم من كل هذا أن الهواء الذي نستنشقه بل كل الطبقة الهوائية المنتشرة على سطح الأرض والتي يتوقف عليها مقدار كثافة الأكسجين هي جزء لازم لكيان الأجسام الحية لزوم العظام واللحم الذي يكسوها، وهو ليس كذلك للجمادات. إذاً فالفرق بين هذه، وبين الكائنات الحية موجود، وهو التوازن الوثني الذي تقيمه الطبيعة بفضل قواها في المواد الأولية - ذلك التوازن الذي لا يوجد له شبيه في عالم الجمادات.

« بيروت - الجامعة الأمريكية » عبد الله عشري الصديقي

(1) Physico-chemical

الطبيعة وحدها هي التي تهدينا إلى سر هذه المشكلة . وإذا كانت حياة الإنسان قد تشابكت من نواح ، وتعقدت من نواح ، وعقدت الحضارة أغلب أطرافها وأوساطها بحيث لم يعد من اليسور لكل عين أن تميز الأصيل في أعمال البشر من الدخيل عليها ، فإن لنا في حياة الحيوان ما يدلنا بوضوح وجلاء على طريقة النهات الطبيعية التي تجذب الذكر نحو الأنثى ، والتي تجذب الأنثى نحو الذكر . فإذا ما نقلنا من الحيوان هذه الطريقة عدنا إلى الإنسان الفنان ونظرنا : هل هو يمشي الطبيعة في غرامه أو هو بعيد عنها منحرفاً أو متعدياً أو هائماً على وجهه يتخبط ذات اليمين وذات الشمال ؟

وقبل أن نخطو هذه الخطوة يجب أن نجيب عن سؤالين قد يخيل لبعض الذين يصحبونني في حولي هذه أنهما يعرقلان المضي في منهجنا ، أو أنهما على الأقل يشوهان هذا المذهب .

أما السؤال الأول فناعم خفيف يقول لنا صوت خافت رقيق : هبكم رأيتم الفنان قد حاد عن طريق الطبيعة التي تزعمون فلماذا تخصونه بالحساب والعتاب من بين الناس وأكثرهم حائد عن هذا الطريق ؟ وإذا كان هو يئن بالشكوى من حبه ، فكثيرون غيره يئنون؛ غير أنه يذيع أنته وهم لا يذيعون !! ونحن نجيب عن هذا السؤال فنقول : إن الفنان هو رائدنا إلى الطبيعة؛ وليس يعذر بعده عنها إلا أن يكون هذا البعد قفزة إلى مرحلة من مراحل الرقي الإنساني يسبق بها البشر ليكون فيهم نذيراً بما سينتهون إليه بعد حين . وليس مما يريح ضمير الإنسانية أن ترى الفنان وهو هاديها إلى الحق ومواطن الراحة مضطرباً في حياته الخاصة ، وفي أعز جانب من حياته الخاصة هذه دون أن تعرف علة هذا الاضطراب لعلها تستطيع أن تنقذه منه

وأما السؤال الثاني فيصرخ فينا بعنف ويقول : كيف قررتم أن الحب عند الإنسان يشبه الحب عند الحيوان ، ولم تروا أنه أرق وأشرف ؟ ونحن نرد هذا السؤال بقولنا : إن الحب لا يمكن أن يخرج على حال من حالين : فإما نزوع روحاني لا يصحبه النزوع البدني وهذا شيء لا يعوقه عائق ، ولا تصده عقبة ، ولا يمكن أن يشكو فيه شاك من بعد أو حرمان أو لوعة أو صبابة أو هجر أو غدر أو غير ذلك مما يشكوه الشاكي ، ومما تدور حوله فنون المتيمين من الفنانين العاشقين ، فالروح متى رضيت عن روح لم تعد تعبأ بما يفرق بينهما من بعد المكان ، أو بعد الزمان ، ولم تعد تهتم باختلاف الجنس بينهما أو توحده

إما هذا ، وإما أن يصحب هذا النزوع الروحاني نزوع جسدي ومن هنا تظهر الشكوى ، ويظهر الأنين ، وتظاهرقوتهما فلا بد إذن أن يكون النزوع الجسدي هو الذي يسببهما إذا لم يصب التوفيق ، وهذا النزوع البدني موجود عند الحيوان ، ولكنه يصيب التوفيق دائماً ، ولا يفشل مطلقاً إلا عند العدوان حين يندس بين الذكر وأنثاه ذكر جديد قوي غلاب ، وعلى هذا كان من غير الطبيعي في حياة الإنسان أن يفشل الرجل في حبه ما لم يصرعه رجل أقوى منه في الناحية التي تعترف بها الأنثى، وتنقاد لها.

هذان هما الحالان اللذان يتشكل بهما الحب في حياة الإنسان على الإطلاق . وأرى من العنة أن أربأ بصورة الحب الإنساني عن الحالة الثالثة التي يتفرد فيها النزوع البدني وحده . لا لأني أريد أن أمجد الإنسان ، ولكن لأني أرى في بعض الحيوان ما يعف عن هذا الحب ويتسامى عليه ، ويجمله بالألفة والمعاشرة ، والحنان والتعاطف . والمسلم به أن الإنسان أرق من الحيوان .

وبعد ، فإني أحسب أن الطريق قد مهد أمامنا ، وأننا نستطيع أن نخطو فيه خطوتنا الأولى نحو الحب عند الحيوان .

والذي نلحظه هو أن للحيوان غزلاً يشبه الغزل عند الإنسان من حيث إنه دليل الرغبة في إقامة الصلة بين الذكر والأنثى، ومن حيث إنه الباب الوحيد الذي يؤدي إلى الحب . والمشاهد أن هذا الغزل يتخذ عند الحيوان عادةً شكل الصراع ، ومن الحيوان ما يترفق فيه فيكون صراعه كاللعب والمداعبة ، ومنه ما يشتد فيه ويقسو فيكون صراعه صراعاً حقيقياً تتهشم فيه العظام، وتسيل فيه الدماء . وهذا النوع الأخير من الصراع يقيم الدليل المحسوس عند الأنثى على أن الذكر الذي ينازلها قوي غلاب ، وعلى أنه يأخذ حقه منها قوة واقتداراً ، وأنه لا تثنيه مقاومتها إياه عن الوصول إلى ما يريده من فرض سلطانه عليها ، والأنثى في هذا الصراع العنيف تبذل أقصى قوتها لتحول بين الذكر وبين التسلط عليها ، لا لأنها تكره أن يتسلط عليها ، ولكن لأنها لا ترضى أن تذل لضعيف قد يعجز عن حمايتها وحماية نسلها إذا اعتدى عليها معتد ، هذا إذا كانا من الحيوان الذي يألف ذكره بأنثاه ، أما إذا لم يكونا من هذا الحيوان فهي تكره أن تستسلم للضعيف خشية أن ينتقل ضعفه إلى نسلها الذي تحب أن يكون قوياً غير ضعيف بما ركب في نفسها من غريزة حفظ النوع سليماً صالحاً .

أما النوع الآخر من الصراع وهو الذي يشبه اللعب والمداعبة فهو أقرب أنواع اللعب والمداعبة إلى المعارضة الإنسانية المصطنعة

التي يقيم الناس لها الملاعب في هذا العصر والتي يكتفي فيها الغالب في التدليل على قوته بإظهار تمكنه من تهشيم خصمه دون أن يهشمه وهذا الأسلوب تصطنعه الحيوانات الرقيقة، والحيوانات المتأنسة.

ومهما خلا هذا الأسلوب من التحطيم والتهشيم والتجريح، فإنه لا يخلو من معانيها، وإن فيه ما يدل دلالة تامة على احترام القوة والاعتراف بلزوم الغلبة والقهر يقيم عليهما الذكر صلته بأنثاه.

فإذا أضفنا إلى هذا ما نراه من تجميل الطبيعة الذكر دون الأنثى: كالديك ازدان بالعرف دون الدجاجة، والأسد تحلى بالمعرفة دون اللبؤة، والكبش ازدهى بالقرنين دون النعجة، والطاووس تبرج بذيله الملون الطويل دون «الطاووسة» .. إذا أضفنا هذا إلى ما تقدم رأينا أن الطبيعة توجه الذكر إلى «مكايدة الأنثى»: قهراً بالقوة، أو اعتزازاً بالجمال، أو قهراً واعتزازاً بالقوة والجمال معاً. ومن هذا يمكن أن ندرك أن الطبيعة قد وضعت ناموساً تقوم عليه الصلة بين الذكر والأنثى، وأن هذا الناموس يستلزم أول ما يستلزم أن يذل الذكر أنثاه، وأن يذكرها دائماً بأنه أقوى منها، أو أنه أقوى وأجمل منها.

والطبيعة تعرض في هذه السوق التي يتداول الذكر والأنثى فيها نواحي القوة والضعف، ونواحي الزينة والعطل وبقية تلك الزوائد والنواقص فيهما شرطاً لا بد أن يتوفر في هذه السوق: وهو أن تقتنع الأنثى مؤمنة صادقة مجبرة بفضل الذكر عليها فيما يمتاز به، وإلا فالصلة بينهما زائفة، وهو آخذ منها ما يرضيه ويقنعه، إذ لا يعطيها ما يرضيها ويقنعها كما يحدث للحيوانات المسجونة التي تنسل نسلاً ضعيفاً

اتفقنا في هذا. فلنعرج إذن على الحب عند البشر، ولنكن القبائل التي تعيش على الفطرة أول من نتعرف من البشر. وهذه القبائل لا يزال الرجال فيها يحاولون ما يشبه الدور الذي يمثله الذكر الحيوان مع أنثاه. فالتوقار لا يسلمون العروس لعروسها، وإنما يدبر العروس حيلة على خطف عروسه فيهجم عليها في جمع من أهله وأصدقائه، ويختطف عروسه من بين أحضان أهلها بالقوة والعنف ليشهدها وليشهد أهلها على أنه قوي جدير بها، ولتسجل عليها هذه الشهادة يذلها بها طول عمرها معه إذا حاولت أن تتمرد عليه أو أن تطاوله. وبعض قبائل الزنوج تحتفل بزفاف فتياتها احتفالاً أعجب من احتفال التوقار وأشد افتخاراً بالقوة والجلد والصبر. وإن لم يكن فيه من الشجاعة والفروسية شيء: ذلك أنهم يتداولون على العروس السعيد بالضرب المبرح الموجع، فتدعو ما احتمل الضرب وكتم التوجع شر عند صاحبته وزاد احترامها إياه وزادته حنيناً بالحب: لهذا يلذ عليها أن تفاخر به صحبة راضية — ولا يزال من أهل النوبة المصريين من يفعلون ما يشبه هذا. فالعروس يطلب من صاحبته أن تحضر له جمرة من النار ليشعل بها لفافته، فتحضرها إليه. فيمسك الجمرة بيده، ويضع الجمرة على حجره تأكل جلده ولحمه وربما يتأنى في لف التبغ في الورق ليشعل بعد ذلك لفافته ويعيد الجمرة إلى مكانها، ويقدر ما يطول احتراق جسده ويشتد يعز عند صاحبته ويعلو قدره

والمرأة التوقارية تحب من يحطمها لأن بيئة التوقار بيئة رعي ومهاجرة ومحاربة تكثر فيها الغارات، ويكثر فيها الكر والفر ولا يستطيع أن يخطف المرأة فيها إلا البطل. والمرأة الزنجية تحب من يحتمل الضرب الوجيع في سبيلها لأن بيئة الزنوج بيئة قاسية تضرب الناس بالحر والبرد والمطر والريح والمرض والسم، فالأشد صبراً من غيره في هذه البيئة هو البطل. والمرأة النوبية تحب الذي يحترق في سبيلها بالنار لأن بيئة النوبة يموت فيها الشباب من وهج الحر والقيظ وشدتهما، فالذي يحتمل الحرارة عندهم هو البطل

هذه بيئات إنسانية قريبة من الطبيعة والرجل فيها لا يزال يفرح للمرأة بقوته، والحياة فيها لا تزال مستقيمة بين الرجل والمرأة

أما جمال الرجولة الخشن فقد ظل الرجال يحرصون عليه زماناً طويلاً كانوا يرسلون فيه شواربهم ولحاهم التي زينتهم بها الطبيعة ولكنهم اليوم لم يعودوا يحافظون عليه، واكتفى فريق من أهل المدنية فيهم بممارسة الألعاب الرياضية لتنمية عضلاتهم وتقويتها كما كان يفعل اليونان القدماء في وقت يذكر التاريخ أن المرأة فيه كانت محترمة للرجل لأنه اكتسب من رياضته تناسقاً وامتشاقاً انشغل به من النظر إلى جمال الأنثى

ولعل هذه الألعاب الرياضية هي البقية الباقية من معالم الرجولة القوية التي تحتفظ بها الحضارة اليوم، ولكنها شيء إنما كسا البدن رجولة أو ما يشبه الرجولة فإنه لا ينفذ إلى الروح والنفس، ولذلك يستعين الرجل المتحضر اليوم على قهر المرأة بالمال أو الجاه أو النفوذ أو المنصب أو الشهرة أو غير ذلك مما يتنافس فيه الرجال المتحضرون. ونحن إذا أمعنا النظر في هذه المميزات المدنية كلها رأينا أنها لا تتاح إلا الذين يتكالبون على العمل في سبيل الوصول إليها أو الذين يصيبونها عفواً بالوراثة أو بالواسطة؛ أما الذين يفوزون بها من جدارة فأولئك الذين في حسابنا، وهم

ينفقون في سبيلها من رجولتهم ما كانت المرأة تحب أن يستبقوه لها فهي لا تستطيع أن تستغني عن حياة الناوشة والمصارعة وهي تكره أن تبيع نفسها بالمال، وإن كانت تبيع نفسها بالمال؛ وهي لا تقنع من الرجل بجاهه وإن كانت ترتمي على أصحاب الجاه؛ وهي لا ترضى بمنصب الرجل وشهرته وإن كانت تتهافت على أصحاب المناصب الكبيرة والمشاهير، فهي تنحرف عن طبيعتها مجاهدة مستعينة بهذه البهارج عما كانت تتوق إليه من قوة الرجل وسحره. ولعل حوادث الخيانة الزوجية التي تتعدد وتتكاثر في الدنيا دليل قاطع على أن الزوجات ساخطات على الأزواج، وأنهن لا يزلن يبحثن عن الرجولة الناشئة في هذه الحضارة

وإذا كانت المرأة تكره المال والجاه والنفوذ والمناصب العالية وما فيها من أبهة ولا تقبل عليها إلا على سبيل البدل من مطلبها الطبيعي، وإذا كانت لا تزال تحب أن ترضى طبيعتها بين يدي من يدلها برجولته ومن يتقن فنون المناورة والمصارعة على أرائكها فماذا هي صانعة عند الفنان أو ماذا هو صانع بها؟

الفنان تسيطر عليه الغرائز التي تسيطر على بقية الناس فهو إنسان مثلهم ولكن هذه الغرائز لا تشتد به — حين تشتد — كما تشتد ببقية الناس، ولا ترفق به — عند ما ترفق — كما ترفق ببقية الناس، فهو وإن كان يحب أن يحفظ النوع البشري كما يحب الناس أن يحفظوه فإنه يسعى إلى ما هو أشرف من حفظ النوع وهو ترقية النوع، والفنان يؤدي لهذا النوع بفنه ما يجاهد النوع دهوراً في سبيل الوصول إليه. وهو وإن كان يحب السيطرة كما يحبها بقية الناس فإنه يتمتع من السيطرة بما لا يتمتع به أحد، ففنه يلوي عنده الأعناق ويخفض بين يديه الرؤوس؛ فإذا لم يوفق إلى هذا في حياته فهو على إيمانه بفنه مؤمن بأن البشرية التي غفلت عن تقديره وهو فيها ستنال سيزاهما إذ تتسابق يوماً إلى قبره لتطوف بالتقديس حول عظامه ولو بعد أن ينخرها السوس؛ وإنه ليرى ذلك وهو في ظل العرش. وهو وإن كان يحب الثروة كما يحبها بقية الناس فهو يتأنق في اختيار ثروته من المعاني والأخيلة والأفكار التي يرصد لها انتباهه وإحساسه ويتعقبها ويتبختر عندها مترنحاً منتشياً كراهبة ترقص في خلوتها على نغم الذكر عابدة لا فاجرة، خالصة غير مشوبة

هذه هي الغرائز التي كان حتماً أن تشترك في تخليق الحب في نفس الفنان كما تخلقه في نفوس بقية الناس، ولكننا قد رأيناها جميعاً تعدل عن الحب إلى الفن

وبقيت بعد ذلك «غريزة الوثنية» التي ذكرناها في بدء هذا الحديث، وأحسبني قلت إنها لم تضعف إلا عند الذين يهد من إحساسهم التدريب على الاتجاه نحو معان يحبونها هم، ويدهش لهم العالم ويتساءل: كيف يحبونها؟ ومن يكون هؤلاء غير الفنانين؟

إذن فالفنانون على هذا الأساس لا يحبون! وعلة انصرافهم عن الحب بعيدة كل البعد عن الأسباب التي توقعناها في أول حديثنا، فقد خيل إلينا أن عجزهم عن الحب قد يرجع إلى قصور في رجولتهم، أو التواء حاد بنفوسهم عن مسلك الحب الطبيعي الصحيح، أو انحراف عن أساليب الأرض إلى أساليبهم الجديدة ولكننا رأيناهم في أول حديثنا يحبون. وقد سجلنا عليهم مثلهم في الحب من بعد تسجيلهم إياه على أنفسهم في فنونهم... فهل هم يحبون أو هم لا يحبون؟... أجيبهم الله!

الواقع أنهم يحبون ولا يحبون. فالفنان إنسان حائر بين حلقتين من حلقات التطور البشري. أولاهما الحلقة التي يعيش فيها، والأخرى الحلقة التي ينتقل إليها بروحه ويستنبطها فنه ثم يعود بعد ذلك إلى نفسه. وهذه الحلقة التي يُسرى به إليها ستتحقق يوماً ما في الأرض سواء أكان هذا اليوم قريباً أم بعيداً وسيعيشها الناس وكلهم في مستوى ذلك الفنان الذي يبهر جيله وسيكون من بينهم فنانون يبهرونهم بما يستنبطونه من حلقات أخرى لا يسرى به إليها غيرهم. وقد ينكر هؤلاء وقد يعترف بهم... أمرهم وأمر الخلق إلى الله

هذا هو مسلك التطور الروحاني للإنسانية فهو (كالمازوخية) الجسدية ولكنه أشد غلياناً وإبهاماً

والفنان يتذبذب بين الأرض وسمائه يتلون بلونين ويتشكل بشكلين: شكل يلائم حياة الأرض بقدر ما تسمح همته الفنية أن يتسلح في أماته، وشكل آخر لا يلائم إلا الذين يستطيعون أن يطيروا معه إلى سمائه ولو أتباعاً مسترشدين به. والفنان السعيد الذي يرضى الله عنه هو الذي يوفق إلى غرام واحدة من بنات السماء. والفنان المنكوب الذي أرجو له الرحمة هو الذي يتعلق به غرام واحدة من بنات الأرض: تثقل به وتمرقله من تغزله فإن أشفقت عليه وسمحت له بهجرته إلى السماء كما تشاء لم يجد عندها حين يهبط إليها إلا ما اختص به الله بنات الأرض. فهو شق منها كشقاء القمد الذي يلهب طائفة ظهره بالسياط ليجرى في سباق مع صبيان خفاف شياطين... وإن كان الثلاثة تسا كسين



دعاوى إيطاليا فى قناة السويس – لمحرر الوورلدريفيو

نقلنا فى هذه الصفحة من العدد ٣٠٢ مقالاً للكاتب الإيطالى ف . بارتو عن دعاوى إيطاليا فى قناة السويس ، وقد نسب الكاتب الفضل فى وضع تصميم القناة وتأسيسها إلى مهندسين إيطاليين ذكر من بينهم : مجرلتى وبترمو وجوليا ، وزعم أن إيطاليا هى الدولة الثانية من بين الدول التى تمر فى هذه القناة ... إلى آخر ما جاء فى ذلك المقال ، والمقال التالى رد على ذلك المقال نلخصه للقراء ليطلعوا على وجهتى النظر فى المقالين .

منذ سنين عديدة كتب أوسكار وايلد مقالاً قيماً عن اضمحلال ودقة الكذب . فلو عاش فى عصرنا هذا الذى انتشرت فيه وسائل الدعاية بين الدول الحديثة ، فما لاشك فيه أننا كنا نقرأ له فصولاً ممتعة عن نهضة الكذب .

إن الدعاوى العريضة التى يدعيها الإيطاليون فى قناة السويس فى هذه الأيام ، مما يحمل النفس تشمئز ويعروها الأسف العميق لهذه الهوة التى انحدرت إليها الصحافة فى العصر الذى نعيش فيه

ونحن وإن كنا لا نرى الصحافة فى عصر من العصور من الانحراف عن الجادة فى بعض الأحيان ، إلا أننا نعتقد أن هذا الانحراف لم يكن يعدو الأمور الصغيرة التافهة التى لا تؤثر بحال من الأحوال فى الشئون العامة التى لها أكبر الأثر فى حياة العالم

ولكن إيطاليا وألمانيا تذهبان إلى آفاق بعيدة المدى فى الكذب فى شئون لها الأهمية الكبرى فى الحياة ، ولعل أسوأ الأمثلة لهذا الكذب الصراح ، هو ما تنشره الصحافة الإيطالية عن قناة السويس ، لا فى إيطاليا وحدها ، ولكن فى تونس والأمريكتين مما ينافى الحقيقة من جميع الوجوه .

ولقد استطعت بعد الاطلاع على هذه المزاعم أن أتوفر على هذا الموضوع وأبحثه بحثاً جيداً فتبين لى أن هؤلاء القوم يلجئون إلى بعض المخلفات القديمة ، ليستخرجوا منها أسماء لها

ويعتبه الفنان إلى علة إخفاقه فى حبه ، فإما أن يرضى من محبوبته بما طاب له فيها من الجمال الروحى والبدنى ، وإما أن يحاول صقل نفسها وتهذيبها ليجعلها تشبه ما يجب أن تكون عليه ، فإذا وفق فى هذا فإنه يرضى أغلب الرضى ، أما إذا فشل فيه فهو الشاكى المتبرم الساخط على الحب اليائس منه المتخاذل أمامه أو المتمرد عليه

وقليلاً جداً ما يفرغ الفنان من وقته لمصارعة المرأة ومناوشتها لأنه يعلم من جولاته فى السماء أن هذه المصارعة من أساليب العنف التى يصح الاستغناء عنها بإدراك غاياتها ، فيحاول أن يتشفع إلى المرأة بفنه ، وهو على كثرة ما يدلل بفنه يخضع نفسه ويخضع فنه للمرأة ويسمو إليها فى هذا الخضوع خاشعاً متوسلاً مستجدياً مستعطفاً ، فإذا به ينقلب أمام المرأة شيئاً آخر أكثر رقة منها من الرجل ، وأشد حناناً منه ، وأكثر بذلاً وعطاء وتضحية فى سبيلها ولكنه على أى حال ليس ذلك الرجل الذى تريد أن تراه قوياً ، والذى يجب أن يقسو عليها قسوة تصهر أنوثتها وتسيلها . فهذه الرقة وهذه الرحمة وهذا التضرع وهذه المسالمة التى يتقرب بها الفنان من محبوبته كلها من علامات الأنوثة — عندها — لا من علامات الرجولة وهى من مظاهر الضعف — فى نظرها — لا من مظاهر القوة ، وهى تبعث فى نفس المرأة الاستهانة بها والشك فى أمر صاحبها إذ لا تضمن المرأة أن يتخذها الفنان وسيلة من وسائل الاستدراج يسلطها على كل من تعجبه من النساء مادام الأمر لا يكلفه أكثر من كلمات رقيقة أو ألحان عذبة أو صور جميلة

والفنان متى وصل به الحال إلى هذا الموقف كان عليه أن يختار واحدة من ثلاث : فإما أن يخصص نفسه لفنه ، وإما أن يخصص نفسه لحبه ، وإما أن يتذبذب بين الفن والحب وهذا ما يفعله الفنانون الشاكون ، فليس يتاح لكل فنان أن يتناسى حتى على الحب فلا يذكره ولا يذكر المرأة إلا كما ذكرها المسيح

عزيز أحمد فهمى

علاقة ما بهذا المشروع الجليل ، فيخلعون على أصحابها حلل الفخار والشرف التي ارتداها رجال لهم شهرتهم وعظمتهم بين العالم ، بعد أن طواهم الثرى في بطونه

فهذه الأكاذيب من النوع الذي يقول عنه (تنيسون) :
الكذب الذي هو نصف حق ، شر من الكذب الصراح

ثم يقولون إن إيطاليا تعد في المرتبة الثانية من الدول التي تمر في قناة السويس . فمن أين جاءوا بالبيانات التي يستندون إليها في هذا الزعم ؟ من الإحصاءات المبنية على ذلك الظرف الاستثنائي الذي دعاهم إلى نقل آلاف من جنودهم البسلاء مجهزين بالمدافع والطيارات والأسلحة المختلفة لمحاربة الحبشة العزلاء عام ١٩٣٦ — ١٩٣٧ ، وعلى هذه الطريقة في الكذب تجري سائر الدعاوي والمزاعم التي يطلعون بها على العالم

إن قناة السويس التي نشأت فكرتها منذ قدماء المصريين ، وفكر فيها نابليون بعد حملته على مصر ، تم مشروعها على يد رجل واحد هو المهندس الفرنسي فردينان دي لسبس .

لقد كان الخطأ الذي حال بين نابليون وبين تنفيذ هذا المشروع هو خطأ المهندس لابير الذي رأى أن هناك فرقاً بين مستوى الماء في البحرين يحول دون ذلك ، وقد أصلح هذا الخطأ بتأثير دي لسبس وحده ، إذ رفع مذكرة إلى محمد سعيد باشا حاكم مصر مؤرخة في ١٥ من نوفمبر سنة ١٨٥٤ ينفي فيها وجود الفارق المزعوم ، مستنداً إلى تقارير قدمت إليه من مهندسين من الإنجليز لهم خبرة عظيمة ومهارة فائقة في هذه الشئون ، تقاسموا بقياس مستوى البحرين وكان لهم الشرف العظيم في نقل هذه الخرافة ، والتوكيد بأن لا فارق بين مستوى البحرين

ومما يدعو إلى الضحك أن ينسبوا تأسيس القناة إلى مهندس إيطالي يدعى (نجريللي)، حاملة عمل الدعاية في الانتفاع بهذا الاسم؟ مما لا شك فيه أن هناك شخصاً يحمل هذا الاسم كان ضمن الذين يعملون في هذا المشروع ، ولكنه من أوستريا لا من إيطاليا ، وقد كان يشغل وظيفة مهندس عموم السكك الحديدية بها ، فعين في بعض الأعمال مع مهندس إنجليزي يدعى استيفنسن فنسبته الدعاية إلى إيطاليا لأن اسمه نجريللي لا أكثر ولا أقل . وقس على ذلك سائر الدعاوي والأكاذيب

إن قناة السويس لم تنتفع بإيطاليا في حال من الأحوال ، ولكن إيطاليا هي التي انتفعت بها في فتح الحبشة

هل في استطاعة ألمانيا أن تحارب — عن ويلز بلجيك

منذ سنتين — وإذا أردت التحديد ففي ١٢ مارس ١٩٣٧ كتبت مجلة ألمانية تقول : إن أهم العناصر التي ستحتاجها في الحرب هو الذهب

وهذا القول يفسر مبدأ معترفاً به في تاريخ الحروب بما فيها الحرب الأخيرة ، إذ وجدت ألمانيا نفسها عاجزة عن تموين جيشها لحاجتها إلى المال . ويتبين من هذا دقة الموقف الذي تقفه ألمانيا وإيطاليا الآن

مما لا شك فيه أن ألمانيا في عجز عن إيجاد الذهب الضروري لحاجتها ، والذهب هو القوة التي يمكن الحصول بوساطتها على الثروة ، وألمانيا في حاجة إلى الشعير والسكر ، وفي حاجة إلى المعادن اللازمة لعمل الأسلحة وتجديدها

ومن المعلوم أن ألمانيا في حاجة ملحة إلى الحديد والنحاس والألومنيوم والنكسيوم والرصاص ، وهي في حاجة فوق ذلك إلى البترول وهو الروح الأساسية للآلات والمصنوعات الحربية على وجه العموم

وهي تعتمد على عبقريتها الصناعية للحصول على هذه المواد ، حتى لا تعول على الدول الأخرى في استيرادها ، تلك العبقرية التي تحول الخشب إلى قطن ، ولبن الأبقار إلى صوف

وعلى هذا النحو تصنع الملابس لجنود الجيش ، وتصنع البترول والمطاط وتصنعونه من الجير ، والصابون وتصنع من الفحم ، والزبدة وتصنع من الزيت ، وتعيش الأمة جميعها على هذه المصنوعات . ومما تحضرنا الفكاهة القديمة وهي عجز ألمانيا في المعادن ، وقلة ثقتها بإخلاص الحليفة؟ وتحت هذا التأثير ولا شك تتشكل محور روما برلين

فإذا قامت الحرب فستكون ألمانيا عرضة كل العجز عن إعداد المال الكافي إذ أنها ستشتري مئونتها ومعادنها من الخارج .

هذه هي الحقيقة التي لا جدال فيها . فقد أصبحت ألمانيا تستورد ٢٠٪ من مواد الأطعمة من الخارج فضلاً عن الأجور العالية التي يتقاضاها المزارعون فيها . ونحن نرجع في هذا الموضوع إلى ما قاله الكاتب الألماني فرتز استرنبرج في كتاب « قوة ألمانيا الحربية » . فقد أورد كثيراً من المعلومات والإحصاءات الهامة التي تدل على عجز ألمانيا من التموين ، واضطرارها إلى زيادة نسبة الوارد إليها من مواد الأطعمة ، والتجاء ألمانيا إلى طريقة المقايضة

في كل ما تريد من الدول . فتقول : أعطني بتروك وأنا أعطيك مقاتيري. وكل هذه الوسائل المعطلة لا قيمة لها إبان الحرب. فإذا أطلقت رصاصة واحدة لا يمكن بعد ذلك أن يعطي : البترول أو الحديد أو النحاس أو الشعير نظير حبوب الصحة وآلات الموسيقى

نحن سوقون في تفكيرنا هذا وراء رائد التاريخ ، ونعتقد أن زعيم الانقلاب في ألمانيا سيتراجع عن فكرة الحرب ، إذ أن مسئوليته كبيرة في أمر هو حياة أو موت لأمته ، ونود لو يذكر لأجل الإنسانية والمدنية قول شكسبير :

« إن في السماء والأرض أموراً غير التي تحلم بها في فلسفتك يا هوريتيو ! »

القرد وحياة الإنسان – عن مقال للدكتور هرقان

الدكتور منريت يعد من رجال الطب المشهورين ، وقد أجرى في هذه الأيام تجربة نفسية لم يسبق لها مثيل .

فمنذ عشر سنوات عاد من سياحة له في أواسط افريقيا ، يصطحب قرداً صغيراً من نوع الشمبانزي يبلغ من العمر سنتين

وقد بذل كل ما في وسعه هو وزوجته وأولاده ، لإبراز هذا القرد الذي أسموه — ناتو — في مظهر الإنسان العاقل بحيث ينشأ منشأه الحيوان ويعيش معيشة الآدميين – دون أن يعملوا أي عمل لتدريبه كالمعتاد . وهذا عمل بلا شك له أهمية عظيمة ، إذ أنه يجعل الحيوان الأعجم يحيا حياة الإنسان .

وكان أول مرة خرج فيها ناتو في جمع من الناس ، في حفلة غداء أقيمت في منزل منريت حديثاً دعا إليها لفيفاً من الأطباء والعلماء المختصين بدراسة نفسية الحيوان ورجال الأدب والصحافة. فدخل عليهم ناتو منتصب القامة يسير على ساقيه الخلفيتين كالإنسان. وأغلق الباب من ورائه في خفة ولطف . وصار يحيي الضيوف ويصافحهم واحداً بعد واحد في أدب ورقة، وصاحبه يقدمه إليهم كما يقدم الصديق العزيز ، ثم أخذ مكانه في مؤخر المائدة ، وساهم في الطعام معهم ، ولم يبد على تصرفاته أي مأخذ .

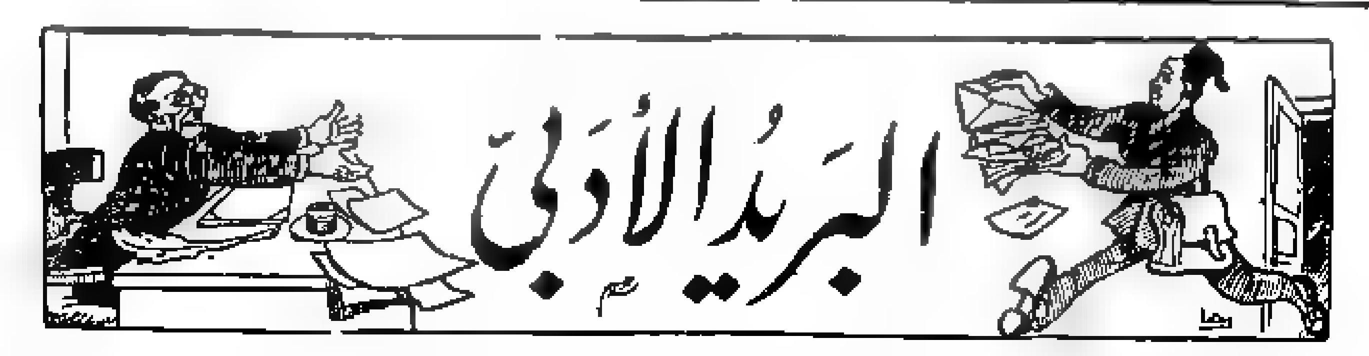
وكان الطعام الذي قدم إليه من نفس الطعام الذي تناوله المدعوون وهو حساء وسمك ولحم وخضراوات وحلوى وفاكهة . وكان ناتو يتناول الطعام من حاره ويملأ ملعقته بنفسه ويأكل بأدب ونظام . وكل ما لوحظ عليه في تناول الطعام أنه يكثر من أكل الخضراوات والفاكهة ويتناول منها أكثر من غيرها . وكان يحتسي كأس النبيذ فيمسكها بيده فيرتشف منها الجرعة بعد الجرعة في اعتدال وهدوء . فلما انتهى من الطعام قام فوضع ذراعه على كتف مدام منريت وأشار إلى زجاجة من نبيذ يرجو عرضها لمجرد النظر إليها ، وكان يخاطبها باسم ماما فقدمت إليه شيئاً منها

وفي أثناء تناول القهوة دعاهم الدكتور للتدخين ، فقام ناتو دون أن يشير إليه أحد بذلك فقدم إليهم لفافات التبغ . ولم ينس أن يوقد لكل منهم لفافته ثم تناول لفافة فأوقدها وجلس يدخنها بلذة واستمتاع

وكان ناتو يرتدي قميصاً فسيحاً وسروالاً خفيفاً وينتعل حذاء من الخيش . وقد أعد له الدكتور حجرة خاصة تحتوي على منضدة وكرسي وسرير ومشجب وبها حمام خاص يستعمله بنفسه وهو يتنقل في حجر المنزل بحرية تامة

وقد شرح الدكتور منريت طريقته في تربية هذا الحيوان فقال : إنه لم يدربه على شيء كما يفعل أصحاب السيرك ، وإنه ألف هذه الحياة من تلقاء نفسه ولم يعلمه أحد من الأسرة أي شيء . وقال إن تربيته تختلف عن تربية الأطفال ، فقد تعلم من تلقاء نفسه كيف يفتح الباب أو يغلقه ، وكيف يفتح النور وكيف يستعمل الشوكة والملعقة والسكين عند تناول الطعام ، وهو ينطق كلمة « ماما » أحسن من أي كلمة أخرى وقد حفظها عن أطفاله . ومن رأي الدكتور منريت أن هذه الكلمة هي أول كلمة نطقها الإنسان بدليل وجودها في جميع اللغات وينطقها القرد آليا بمجرد فتح الفم وإغلاقه مرتين


داود عدس
وولده
يقدم
ابتداء من يوم
الخميس
أول يونيو
والايام التالية
فرصة عظيمة
للبيع
تنزيل هائل
في جميع الاقسام



١ — مناوأة الخدر والنعاس

في العدد السابق من الرسالة كتب الصديق الفنان الأستاذ زكي طليمات «تعليقاً وتذييلاً» لقصة الفتور في الأدب المصري فراجع بعض ما رآه الأستاذ توفيق الحكيم وبعض ما أذهب إليه فجاءت كتابته جياشة بالمعاني؛ ولعل القراء وقفوا عند ما قال فيهم وتدبروه، قال: «فإذا كان النتاج الأدبي في مصر لا يقابل من الجمهور بالحماس الواجب، فلأن الفتور مفروض على كل شيء يجري في مصر، ولأن عدم الاكتراث صفة — ويا للأسف — من صفات الأكثرية الغالبة من الجمهور المصري ولا سيما فيما له علاقة بالأدب والفن». غير أني لا أرى كل هذا الرأي، فالذي عندي ما كتبته في هذا الباب من الرسالة لصديق مضيا، ومجمله أن الجمهور المهذب من القراء يرغب عن أدب التسلية والإنشاء التعليمي ويقدر ما يستحق التقدير؛ إلا أنه قليل

٢ — ديوان يظهر في قلب الصيف

ستخرج مطبعة مصرية ديوان شعر بعد شهر وبعض شهر، والديوان مهيأ للطبع منذ ثلاثة أشهر، وإن أنت عجبت للأمر فقلت: كيف يخرج ديوان في العهد الذي فيه يُقعد الحرُّ الناس ويصرفهم عن القراءة ويسيّرهم إلى الشواطئ والمصايف القريبة والنائية، فاعلم أن بهذا الديوان غنى عن جمهور القراء، إذ أن مؤلفه من أصحاب الحظوة العالية في وزارة المعارف، وحسبه ما تقتنيه الوزارة من النسخ .. قصة معروفة: إن المال الموقوف على تشجيع التأليف في وزارة المعارف محبوس — إلا أقله — على إعانة رجالها وأصدقائهم!

٣ — في النقد الأدبي

يُعنى الدكتور إسماعيل أحمد أدهم بكتابة فصول في الأدب العربي الحديث. فأخرج مبحثاً في الدكتور طه حسين بك وآخر في الأستاذ توفيق الحكيم (في مجلة الحديث الحلبية) وهو يواصل نشر مبحث في الأستاذ خليل مطران في مجلة المقتطف. ومزية كتابة الدكتور أدهم أنها منصرفة إلى النقد القائم على النزعة الموضوعية لا الذاتية، كما نقول اليوم. والحق أن النقد عندنا أكثره يجري على الطريقة التأثرية. وهكذا ترى الدكتور أدهم يميل مع ناقدين أو ثلاثة من أهل مصر ولبنان إلى جمع التأثر Impressionnisme وتحديده ومراقبته حتى تنقلب المعرفة على الإحساس. إلا أني أرى فيما يكتب الدكتور أدهم موضعين للنظر: الأول اعتماده على الآراء القَبلية a priori والمسلّمات والمقبولات. وترى ذلك في الفصل الأول والثاني اللذين كتبهما في خليل مطران، ومثل هذا الأسلوب أجنبي عن طريقة النقد الموضوعية؛ لأن هذه الطريقة تذهب من الواقعات إلى النظر ومن الخاص إلى العام: فلا يتكلم الناقد مثلاً على لون من ألوان الشعر ليدل بعد ذلك على أن شاعراً من الشعراء ينظم في ذلك اللون، بل يجري على عكس ذلك. ومن هذا أيضاً أن الدكتور أدهم يقرر القضية من باب الارتجال فيستخلص منها ما يستخلص: من ذلك قوله في مطران (المقتطف يونيو ١٩٣٩ ص ٨٧): «وقد خلص الخليل من هذه السنين (سنين الطفولة) بطبيعته الاجتماعية التي تميل إلى خلق جملة صلات اجتماعية une somme de rapports sociaux مع الناس». فإني لا أفهم هذا النحو من التفكير «الموضوعي» وكأن بالدكتور

أدم اقتبس منى (انظر « مباحث عربية » ص ٧٦) هذا التعبير: « جملة سمة اجتماعية » مع ما ينظر إليه باللغة الفرنسية ، من دون أن يحسن استعماله فى مجرى حديثه ، على ما يبدو.

وأما الموضع الثانى فإهمال الدكتور أدم لاستقصاء المصادر . من ذلك ما فاته من مراجع فن توفيق الحكيم . فقد كان يحسن به أن يلتفت إلى ما كتبته فى هذا الباب فى مجلة الشباب (٩ مارس سنة ١٩٣٦) وجملته أن كلام توفيق الحكيم فى مسرحياته الأولى على أن « الكائنات ظواهر لا حقائق » ، وما يترتب على ذلك من صراع بين الواقع والحلم ، وبين الزمان والتاريخ ، وبين الشهوة والرغبة ، إنما هو أصلاً لكاتب مسرحى فرنسى يدعى لينورمان H.-R. Lenormand ومن تأليف هذا الرجل « إنما الزمان حلم » (سنة ١٩١٩) و « آكل الأحلام » (سنة ١٩٢٢) و « الرجل وأشباحه » (سنة ١٩٢٤) . ثم إنه فى قصص توفيق الحكيم مظهراً آخر مستمداً من الأول وبيانه: أن الإنسان يسيّره ما لا يعرفه وما لا يقدر على مقاومته. وهذا الرأى الآخر يرجع إلى كاتب بلجيكى يدعى موريس ميترلنك (وإلى إبسن Ibsen قبله). بقى أن الأستاذ توفيق الحكيم ينحو نحو ميترلنك فى إنشاء ما يقال له فى فن المسرح « الحلم » ، وجو القصة المسرحية قائم على بث الأنوار ، وتوزيع الأثاث وإجلاس الممثلين ، إلى غير ذلك . وجو المسرحية عند الحكيم كجو المسرحية عند ميترلنك من حيث الميل إلى بسط الإبهام على المناظر وإثارة الأوهام فى نفس الناظر .

وليس معنى هذا أن توفيق الحكيم لم يأت بشىء من عنده . فقد كتبت قبل اليوم أنه « يحكم سرد الرواية ويحكم الحوار ويحكم تهيئة البيئة ؛ فهو صاحب فن حقاً » ، وقد استشهد الدكتور أدم فيما كتبه بهذه الجملة (ص ٣٥٧)

وبعد ، فإنى أدعو من يعنى بالفصل الذى كتبه أدم فى الحكيم — وهو فصل حقيق بالعناية — أن يرجع إلى نقد الأستاذ صديق شيبوب لذلك الفصل فى صحيفة البصير (١٢ مايو ١٩٣٩) ، فإنه جم الفائدة .

بشر فارس

الأتراك والحرف العربى

كنت نشرت فى الجزء (٢٢٦) من السنة الخامسة للرسالة الغراء — مقالة عنوانها (الحرف العربى والإفرنجى) نعيت فيها على هؤلاء الترك استبدالهم الذى هو أدنى بالذى هو خير ، وقلت فيها : « وأما ذلك التجديد فليس اليوم أن يقضى فيه قضاءه ، وللنقد الحكم فننظر أأحسن القوم أم أساءوا » وبينت أن الحرف الإفرنجى هو الحرف العربى نفسه ، وأصل الحرفين معلوم ، غير أن الزمن قد حسن الثانى أى العربى وهذبه

وإن ما صنع الترك هو أنهم انقلبوا يسطرون أو يخربشون من الشمال مبذرين مضاعفين الكلمة ، وكانوا يكتبون من اليمين موفرين الوقت الثمين والكاغد

وقد قرأنا اليوم فى الصحف هذا الخبر من أنقرة :

« أنقرة — أخذت الأوساط التركية تفكر باستعمال الحروف العربية بعد أن قامت عدة صعوبات فى استعمال الحروف اللاتينية ، ويقال إن حكومة الجمهورية قد تفكر فى إلغاء القرار القاضى بمنع استعمال تلك الحروف »

فإذا صدق هذا الإعلام — ولا أستبعد صدقه — فقد عقل القوم من بعد السفه ، وصحوا من سكرهم ، وأحسنوا إلى أنفسهم وأدبهم وتاريخهم وآثارهم — على ضؤولة قدرها — وإلا فإصرار البطل على الضلالة والباطل لا يدل على أنه عقل

الاسكندرية

•••

على فراش الموت

أصدرت دار الهلال أخيراً كتاباً عنوانه «على فراش الموت» من تأليف الأستاذ طاهر الطناحى. وهو كتاب محكم الوضع طريف الموضوع مختلف الجنَى بين اللذة والفائدة والعبرة ، وقد أهداه إلى الأستاذ أمين الخولى فكتب إليه هذا الكتاب :

إلى الأديب الكبير الأستاذ طاهر الطناحى ...

تحية وسلام . وبعد فقد تلقيت كتابكم من اللحظات الأخيرة

وأثر في تناولكم الدقيق لتلك اللحظات من اليقظة التي تتكشف فيها النفس عن جوهرها السماوي، وتستقبل الحياة الثانية بصفاء كدرته طوال تلك الحياة الدنيا أوهامها وأحاديثها

نظرت فيما دوّنت من حال العظماء في تلك الدقائق الرهيبة، آخر عهدهم بالدنيا وأول عهدهم بالآخرة؛ فتجسم لي قول من سلف: الناس نيام فإذا ماتوا انتبهوا. وشعرت أن من كمال الترجمة لعظماء العالم أن تعرض لنا حياتهم في تلك الأوقات الختامية؛ وكأنما «فراش الموت» بساط ساحر لا يخفى مداه، فهل أقول لك: ابسط منه ما استطعت وحدث الناس في أجزاء أخرى من تلك اللحظات على باب الأبدية، وعتبة الحياة الثانية، واكشف من نفوس المعدودين ما لا يتكشف إلا في تلك البرهة القيمة الجليلة؟

إن الموضوع رائع رهيب؛ وقد بلغت تلك الروعة والرهبة في تناوله. وفي لحظات قصيرة نظرت فيها إلى هذا المؤلف غمرتني تلك الروعة والرهبة، وشعرت بما شعرت به حين كتبت فصلك عن «الحب والموت» على ما أظن ... مزيج من الخشية والتسامي إلى عوالم اللانهاية

أشكرك وأحييك، وأبعث إليك مع سلامي أطيب تمنياتي

أمين الخولي

اصطلاح جديد

سيدي الأستاذ الزيات

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، وبعد فقد قرأت مقال أستاذنا الفاضل أحمد أمين «أدب الروح وأدب المعدة» فألفيتُ مطلعه هكذا: «هذا اصطلاح جديد أضعه لنوعين من الأدب يتميزان كل التميز، ويختلفان كل الاختلاف، لعل في وضعه فائدة في تقويم الأدب وصحة تقديره». وما بي من عزم على أن أعرض لما جاء في ثنايا الموضوع من آراء، فأنا أحترم رأي الأستاذ وإن بَعُد ما بيني وبينه، ولكني أريد أن أقول: إن هذا النوع من المقابلة ـ وهو طريف ـ لم يكن ابن الساعة، فطالما سمعته يجري على لسان أستاذنا المرحوم الرافعي في صور، وهو جرى على قلمه أيضاً في صور أخرى. ففي وحي القلم الجزء الأول ص ٨٤ س ١ جاء ما نصه: «... لستُ المدبرّ لما في نفس أحد، ولا بمعدته وبطنه....» وفي ص ١٣٥ س ١٢ من نفس الجزء جاء: «أيؤرِّخ الإنسانُ يومئذ بتاريخ معدته وما حولها، أم بتاريخ نفسه وما فيها؟» وفي ص ٢١٢ س ٤ من الجزء الثاني جاء: «... ويتعامل الناس في الشرف على أصول من المعدة لا من الروح ...». ولو ذهبت أتقصى هذا التعبير فيما كتب الرافعي ــ رحمه الله ــ لكلفت نفسي شططاً؛ وحسبي هذا برهاناً على ما رأيت، والسلام

أمين محمد حبيب

كيفية ظهور الحياة على الأرض

سيدي رئيس تحرير الرسالة:

سلاماً وتحية. أما بعد فقد قرأت مقالة الأستاذ الشنباوي في عدد الرسالة الأخير (٣٠٩) عن كيفية ظهور الحياة على الأرض. فوجدت فيها كثيراً من الخطأ أبين وجهه وصوابه فيما يلي:

فالأستاذ يبني كلامه على حقيقة لم يقل العلم فيها إلى الآن كلمة (الفصل): فهو يقول إن الكائنات الحية خاضعة لنواميس الطبيعة. ولكن الواقع أن كثيراً من ظواهر الأحياء كالحركة والتفكير والغرائز ــ لا زالت تحير العلماء ــ ولما يجدوا لها تفسيراً مقبولاً. ولا زال علماء الحياة يعتبرون أن هناك قوة اسمها الحياة لا يدركون كنهها، ولكنهم يرون أثرها.

هذا من جهة، ومن جهة أخرى فإن الأستاذ يستنتج من هذه الآراء نتائج غير صائبة. فيقول: إن السبب الطبيعي لنشوء الحياة هو حرارة الشمس، والأشعة البنفسجية التي كانت تبعثها في فجر الحياة. فلو سلمنا أن حرارة الشمس كانت حينئذ أشد منها الآن بمراحل ــ كما يقول الأستاذ ــ فإن هذا يدحض رأيه. فالحرارة الشديدة لا تساعد على نشأة الحياة وازدهارها، وإن كانت تساعد التفاعل الكيميائي. وذلك لأن البروتوبلازم (المادة الحية) يصاب بالضرر إذا اشتدت الحرارة كما هو معروف لكل من درس علم الأحياء ــ والواقع أن الشمس لم تتغير كثيراً منذ نشأة

الكواكب السيارة ، ومنذ ظهور الحياة على الأرض . فإن ثلاثة الآلاف من ملايين السنين ليست إلا يوماً في حياة الشمس » (النجوم في مسالكها تأليف السير جيمس جينز وترجمة الدكتور الكرداني)

ولو سلمنا برأي الأستاذ لحتم أن توجد الحياة في بعض الكواكب السيارة الأخرى التي وقعت تحت نفس الظروف التي وقعت تحتها الأرض كالمريخ مثلاً . ولكن « يظهر أن احتمال وجود الحياة على المريخ أو على أي كوكب سيار آخر في المجموعة الشمسية لا يمكن أن يسمى احتمالاً قوياً » (النجوم في مسالكها السالف الذكر)

ويخبرنا علم الجيولوجيا أن الحياة لم تظهر غالباً إلا بعد مدة طويلة من نشوء الأرض . وأقدم الحفريات (وهي بقايا الكائنات الحية الموجودة ضمن الصخور) يقل عمرها عن نصف عمر الأرض ، أي إن الحياة لم تظهر غالباً إلا بعد انقضاء نصف الزمن الجيولوجي . وهذا يخالف ما يذهب إليه الأستاذ من أن الحياة نشأت حيثما نشأت الأرض

وتسارى القول أن منشأ الحياة لا يقدر أحد أن يجزم زمانه أو كيفيته . ولعل تقدم العلم - المبني على التجارب والحساب لا على الخيال - يحل لنا هذه المسائل . والسلام . منير أمين مطلي

توحيد المصطلحات الطبية في العربية

وافق مجلس الوزراء على مذكرة لوزارة الخارجية قالت فيها : إن الجمعية الطبية المصرية طرحت موضوع (توحيد المصطلحات الطبية في اللغة العربية) على مؤتمرها الأخير الذي عقدته في أوائل سنة ١٩٣٨ في بغداد فأصدر قراراً اقترح فيه مقترحاً فصلت الجمعية الطبية قواعده فيما يلي :

أن تتصل الحكومة المصرية بحكومات الأقطار العربية في الشرق الأدنى للاتفاق على ما يأتي بصفة رسمية :

أولاً : أن تؤلف كل منها في بلادها لجنة من الأطباء واللغويين للنظر في موضوع توحيد المصطلحات العربية للعلوم الطبية أي اختيار أفضل تلك المصطلحات للاستعمال ، ويراعى في اختيار هذه اللجان أن تمثل فيها الجمعيات الطبية المختلفة

ثانياً : أن تنتدب كل من تلك الحكومات من أعضاء اللجان المشار إليها عضوين للاشتراك في لجنة دائمة تجتمع بالقاهرة شهراً في كل سنة على نفقة تلك الحكومات لبحث المصطلحات العربية المقترحة بواسطة اللجان المشار إليها أو الواردة في المعاجم الطبية العربية والبحوث اللغوية الطبية في مختلف البلاد واختيار أصلحها للاستعمال

ثالثاً : أن تكون قرارات اللجنة الدائمة المشار إليها معترفاً بها للاتباع في جميع المعاهد التعليمية والطبية في الدول المشتركة بحيث تتوحد المصطلحات الطبية العربية في جميع معاهدها وبالتالي في جميع مؤلفاتها ومجلاتها وعلى ألسن أطبائها

رابعاً : أن يكون انعقاد اللجنة الدائمة في كلية الطب أو مجمع فؤاد الأول اللغوي بالقاهرة ، وتتولى الجمعية الطبية المصرية الإشراف على سكرتيرية اللجنة ، وتتحمل وزارة المعارف المصرية النفقات الخاصة بالسكرتيرية والمراسلات والمطبوعات التي تصدرها اللجنة

جائزة « أمير ويجين »

تلقت قنصلية الأرجنتين في الإسكندرية من جمعية مكافحة السرطان الفرنسية أنها منحت الأستاذ الدكتور أنجل روفو مدير معهد الأبحاث الطبية في (بونس إيرس) عاصمة الأرجنتين جائزة « أمير ويجين » ومقدارها ١٠٠ ألف فرنك ؛ وذلك لتقديمه إلى الجمعية أفضل الأبحاث الطبية الدولية عن « تأثير الطعام في إنماء السرطان » وقد سلمت الجمعية قيمة الجائزة إلى الدكتور كركانو وزير الأرجنتين المفوض في فرنسا ، لإبلاغها إلى الفائز بها

وقد قرر الدكتور روفو الاكتفاء بالشهادة الممنوحة له من الجمعية ، أما الجائزة المالية فقد تبرع بها لحكومته لتنفقها في الأبحاث الطبية ، على أن ينتدب لهذا الغرض طبيب أرجنتيني يسافر إلى فرنسا لمدة سنة لإجراء أبحاثه هناك ، وطبيب آخر فرنسي يقدم إلى الأرجنتين لعمل مثل هذه الأبحاث

الشعبة المصرية لمعهد التعاون الفكري

بين القرارات التي اتخذتها الشعبة المصرية لمعهد التعاون الفكري ، تحديد قيمة الاشتراك السنوي الذي تدفعه مصر للمعهد وجعلها خمسمائة جنيه في العام

ودرست الشعبة مشروع مرسوم بتنظيم أعمالها ومشروع لائحتها الداخلية وبحثت مسألة اختيار أعضائها ، واستقر الرأي على أن يكون بعضهم ممثلاً لهيئات علمية وأن يختار البعض الآخر بصفتهم الشخصية

واقترح سكرتير الشعبة الأستاذ محمد العشماوي بك وكيل المعارف أن تمثل الشعبة في المؤتمر المزمع عقده في مصر لتوحيد الثقافة بين البلدان العربية ، فوافق المجتمعون على هذا الرأي على أن يمثل الشعبة في الأعمال التمهيدية للمؤتمر : الدكتور منصور



تاريخ التعليم في عصر محمد على

تأليف الأستاذ أحمد عزت عبد الكريم

للأستاذ على ابرهيم حسن

ألف حضرة الأستاذ أحمد عزت عبد الكريم مدرس التاريخ الحديث المساعد بكلية الآداب كتاباً عن « تاريخ التعليم في عصر محمد على » . وقد درست هذا الكتاب أو بالحرى هذا المجلد الضخم الذى تربد صفحاته على ثمانمائة صفحة فوجدته درساً دقيقاً وإحاطة شاملة وبحثاً مستفيضاً لتاريخ التعليم فى مصر فى النصف الأول من القرن التاسع عشر ، وهى الحقبة الهامة التى شاهدت تكوّن امبراطورية محمد على وتحوّل مصر إلى دولة عسكرية فتية آخذة بأسباب الحضارة الحديثة .

وقد نحا المؤلف نحو العلماء الباحثين فى بحثه ، فسرد الوقائع وأردفها برأيه الشخصى ، وعلق على الحوادث بآرائه التى تدل على الفطنة ودقة الحكم والتمييز . وقد استند المؤلف فى بحثه إلى مراجع كثيرة ما بين عربية وافرنجية وتركية، كما استند إلى وثائق ومخطوطات بقسم المحفوظات التاريخية بديوان جلالة الملك .

ولسنا نستطيع فى هذه العجالة أن نفيض فى الحديث عن كل فصول هذا الكتاب الضخم ، وحسب القارئ أن يرجع إلى الفهرس التحليلى الذى أورده المؤلف فى صدر كتابه .

فهمى بك مدير دار الكتب ، والأستاذ أحمد أمين رئيس لجنة التأليف والترجمة والنشر

ووافق الأعضاء على تأليف مكتب مؤقت يضم سعادة لطفى السيد باشا رئيس الشعبة ، والدكتور على ابراهيم باشا وكيلها ومحمد الشناوى بك سكرتيرها العام ، والدكتور طه حسين بك والدكتور أحمد عبد السلام الكرداني بك

وعرضت على اللجنة مذكرة مقدمة من الأستاذ محمد قاسم بك عميد دار العلوم ومندوب الحكومة المصرية فى المؤتمر الدولى الثامن للعلوم التاريخية الذى عقد فى أغسطس الماضى بمدينة زوريخ بسويسرا . وقد تضمنت المذكرة طائفة من المقترحات خاصة بوضع فهرس عام يجمع شتات المصادر المطبوعة للتاريخ المصرى ، ووضع قاموس للتراجم المصرية ، ووضع مصور تاريخى يبين أهم تطورات التاريخ المصرى إلى غير ذلك . وقد عهدت الشعبة إلى لجنة مؤلفة من مقدم المذكرة ، والأستاذ محمد شفيق غربال عميد كلية الآداب ومسيو دريوتون مدير مصلحة الآثار ، ومسيو فييت مدير الآثار العربية — درس هذه الاقتراحات

جمعية الفنانين المصرية

ستقام مباراة فى فن الخط العربى للفنانين المصريين والأجانب يدور موضوعها حول كتابة اسم الجمعية. والمتسابق الحرية فى انتقاء نوع الخط وحجمه على أن يذيل النماذج بإمضائه واسمه وعنوانه، ويرسلها إلى مقر الجمعية رقم ٦ شارع فؤاد الأول بمصر، فى موعد لا يتجاوز يوم ٢٧ يونيو عام ١٩٣٩

وقد تقرر لها جائزة مبلغ جنيه مصرى . وللمتسابق الحق فى أن يتقدم بأكثر من مخطوط

ع . روفائيل

قسم المؤلف فصول كتابه تقسيماً منطقياً إلى ستة كتب وثلاثة وعشرين فصلاً ، فتكلم أولاً عن التعليم قبل محمد علي وهو التعليم الديني في الأزهر والكتاتيب والتربية التي كان يأخذ بها الأمراء مماليكهم، والتأثير الفكري الذي استحدثته الثورة الفرنسية في الثقافة المصرية . وانتقل المؤلف من هذا إلى فصل ألم فيه إلماماً عاماً بسياسة محمد علي في التعليم فعرض لنا فصولاً شائقة في جهود العاهل الكبير في إنشاء المدارس وبعث البعوث وترجمة الكتب ونشرها والأغراض التي كان يتوخاها من النهضة التعليمية . ثم عرض المؤلف مسائل هذه السياسة عرضاً تمهيدياً مبيناً ما بينها وبين وسائل التربية الفرنسية من شبه ومن خلاف ، والأثر الغربي في النظام التعليمي الحديث في مصر . ثم أخذ المؤلف في شرح تطور هذا النظام التعليمي في عصر محمد علي ، فتحدث عن نشأة التعليم الحديث في مصر من ١٨١١ إلى ١٨٣٣ ثم عن إنشاء شورى وديوان المدارس وقد حقق تاريخ إنشاء هذا الديوان واختصاصاته وكبار موظفيه تحقيقاً قال عنه أستاذنا شفيق غربال إنه « يصح أن يكون مثالاً لكيفية استخراج الحقائق التاريخية من الوثائق الرسمية »

ثم انتقل المؤلف إلى حركة التعليم في سنة ١٨٤١ والنهضة التعليمية التي جدت في السنوات الأخيرة من عصر محمد علي والتي كانت ترمي إلى تجديد الأساليب التعليمية وإلى نشر التعليم بين الأهالي . وفي الكتاب الثالث فصل المؤلف الكلام على معاهد الدراسة الابتدائية والتجهيزية والخصوصية ومناهج التعليم في مراحله الثلاث وخططه، وأتى بإحصاءات دقيقة لهذه المعاهد وعدد تلاميذها وكتب الدراسة بها طوال عصر محمد علي

وقد عني المؤلف بالحديث عن البعوث العلمية فنقد نظامها وتحدث عن أوجه انتفاع البلاد بأعضائها ، ثم سرد إحصاءات طريفة عن البعوث المختلفة في عصر محمد علي . وقد خصص المؤلف فصولاً ممتعة في الحياة المدرسية وكل ما تعلق بها . ثم أعاد بحث المسائل التي ابتدأ بها مستعيناً في نقده بما أورده في الكتب السابقة من التفصيل ، فتحدث — في الكتاب الأخير — عن العلاقة بين التعليم القديم والتعليم الحديث ومدى تأثير كل منهما في الآخر وعلاقة الدولة والمجتمع بكل من التعليمين . وفي الفصل الثاني من هذا الكتاب تقصد المؤلف النظام التعليمي الحديث في عصر محمد علي مبيناً ما به من أوجه الضعف وأخصها إهمال التعليم الأولي وضعف الصلة بين مراحل التعليم والمركزية في إدارة التعليم وضعف مناهج الدراسة . ثم انتقل المؤلف إلى بيان الصلة التي نشأت بين المدرسة المصرية والمجتمع المصري في النصف الأول من القرن التاسع عشر

ولم يختم المؤلف كتابه إلا بعد أن عقد فصلاً ختامياً تحدث فيه عن مدى نجاح النظام التعليمي الذي أنشأه محمد علي في مصر من حيث توجيه البلاد إلى التعليم الحديث واتصالها بالحضارة الأوربية وتوطيد زعامة مصر في الشرق العربي ونهضة اللغة العربية . وختم المؤلف كتابه بفصول إضافية في تاريخ المعاهد الخارجة عن النظام القومي كمدارس الجاليات الأجنبية والطوائف الدينية غير الإسلامية ، وبصور عن بعض الوثائق الهامة كلوائح الدراسة وتقارير الامتحانات والتفتيش ، وبنقد للمراجع التي رجع إليها ، وبيان مفصل لسجلات الوثائق الرسمية التي استمد منها مادة البحث وخاصة السجلات التركية والعربية لديوان المدارس في عصر محمد علي ، وفي نهاية الكتاب يرى القارئ « لوحات » طريفة لنماذج من الوثائق التركية والعربية والفرنسية ترجع عهدها إلى عصر محمد علي ؛ قصد بها المؤلف — كما قال في مقدمته — : « نقل بعض الوثائق ذات الأهمية التاريخية العظيمة وبيان أسلوب ذلك العصر في تقييد أوامر الوالي ومكاتبات الدواوين وطريقة العمل في الدفاتر التركية والعربية لديوان المدارس ، وتقييد نتائج الطلبة المبعوثين لطلب العلم في فرنسا ». نذكر من بين هذه اللوحات — على سبيل المثال — الوثيقة الأصلية لأمر محمد علي بإنشاء ديوان المدارس وأختام ديوان المدارس التي كانت تبصم بها قراراته وسجلاته ، ومضبطة أول جلسة عقدها شورى المدارس ، والجلسة التي أعلن فيها إنشاء الديوان ، وصورة التقرير الذي كتب بالفرنسية عن امتحان الخديو إسماعيل عند الالتحاق بمدرسة سان سير بفرنسا

فى أكتوبر سنة ١٨٤٨ وفيه بيان أسئلة الامتحان والدرجات التى نالها فى كل منها الخ ...

وقد صدر الكتاب بتقديم تاريخى نفيس فى أربع عشرة صفحة بقلم أستاذنا المؤرخ الجليل « محمد شفيق غربال » عميد كلية الآداب وأستاذ التاريخ الحديث بجامعة فؤاد الأول وصاحب الفضل فى تخريج عدد كبير من الشبان الباحثين فى التاريخ . تحدث أستاذنا فى مقدمته عن الوثائق التاريخية (وحق المؤرخ) فيها وجهود المغفور له الملك فؤاد - طيب الله ثراه - فى حفظها وتشجيع الباحثين على الاستفادة منها ، ثم تحدث عن اتجاه « المؤرخين الشبان » نحو دراسة « الإصلاح المحمدى العلوى » وذكر منهم مؤلف الكتاب الذى تتحدث عنه اليوم فأظهر النواحى التى أهلته للكتابة فى تاريخ التعليم فى مصر . ثم انتقل استاذنا العلامة إلى الحديث عن محمد على والتعليم فعرض لنا صورة بديعة « لمنظر الرجل الذى لم يتزود من تعليم المدارس يستحث رعيته على طلب العلم ، وينفق النفس والنفيس فى تهيئة وسائله لهم » ودرس خطة محمد على فى التعليم وأهميتها « لأهل الجيل الحاضر فى مواجهتنا مستقبل الثقافة فى مصر » .

و « التعليم » عند المؤلف يمثل ناحية هامة من نواحى النشاط السياسى والاجتماعى لمصر الحديثة . وعلى هذه الفكرة بنى المؤلف بحثه حتى جاء كتابه بحثاً تاريخياً بيداجوجياً يجد فيه المؤرخون بحوثاً واسعة فى تاريخ مصر فى القرن التاسع عشر ، كما يجد فيه رجال التربية والتعليم بحوثاً أخرى فى نظم التربية وتطورها فى مصر فى ذلك العصر ؛ ونظريات بيداجوجية عن تعليم الطفل والبالغ وعلاقة المدرسة بالمجتمع ومدى تأثير كل منهما فى الآخر . ولذلك فهو مجموعة لا غنى عنه لطلبة « التاريخ » بكلية الآداب ، وطلبة المعاهد والمدارس التى تدرس التربية كدار العلوم ومعهدى التربية للبنين والبنات ومدارس المعلمين والمعلمات والمهتمين بدراسة التاريخ السياسى والاجتماعى لمصر الحديثة والمشتغلين بالتربية والتعليم .

على إبراهيم حسن
مدرس التاريخ بالمدرسة الخديوية

(طبعت بمطبعة الرسالة بشارع المهدى — عابدين)